بَلَاغَةُ الحِجَاجِ

في خُطبة "ذَمِّ الدُّنيا" للإمام عَليّ بنَ أبي طالبٍ ﷺ

إعـداد

دكتورة/ ريهام مختار محمد جمميعي

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالأسكندرية-

جامعة الأزهر

١٤٤٦ هـ- ٢٠٢٤م

ض

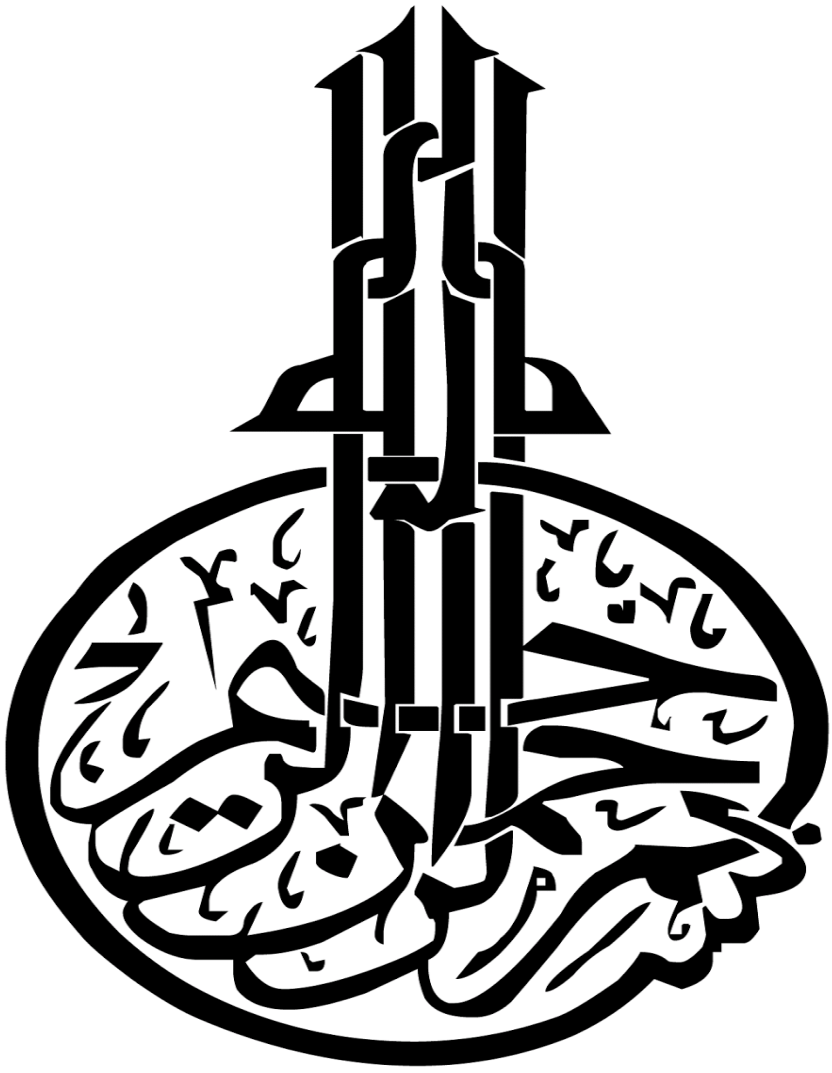

بلاغة الحجاج في خطبة "ذمّ الدنيا" للإمام عليّ بن أبي طالب-رضي الله عنه-.

ريهام مختار محمد محمد جميعي.
قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنات بالإسكندريَّة.
البريد الإليكتروني:
rehammokhtar-islam.alx@azhar.edu.eg

الملخّص:

هذا البحث يتناول بلاغة الحِجَاج في خُطبة "ذمّ الدُّنيا" للإمام عليّ بن أبي طالب _رضي الله عنه_ فهذه الخطبة تمثِّل خطابًا إقناعيًّا يهدف إلىٰ التأثير في نفوس المخاطبين واستدراجهم للإذعان والتصديق بصحة كلامه رضي الله عنه. وقد اعتمد الإمام عليّ في خطبته علىٰ الآليات الحجاجيّة التي ترمي إلىٰ إقناع المخاطب وتصديقه لما يُقال، وقد تنوّعت وتعدَّدت هذه الآليات في الخطبة من حيث العناصر الحجاجية، وأدوات الحجاج ووسائله اللغوية والبلاغية، ثم الروابط الحجاجية، مما أسهم بشكل كبير في عملية إقناع المخاطبين بفكرة زوال الدنيا وبطلانها. كما أن هذه الدراسة تسعىٰ إلىٰ إبراز الخصائص الحجاجية من خلال خطبة ذمّ الدنيا، كما تهدف إلىٰ إيضاح كيفية توظيف الإمام أدوات ووسائل الإقناع حتىٰ يصل إلىٰ عقول السامعين وإقناعهم بفكره ومعتقده.وإذا كان الحِجاج يعتمد علىٰ أدوات وطرائق مخصوصة في تقديم البراهين والأدلة التي تجذب انتباه المخاطب وتستدرجه حتىٰ تتحقق عملية الإقناع والتأثير للوصول به إلىٰ بغية المتكلم، فإنَّ هذه الدراسة تهدف إلىٰ الكشف عن أدوات الحجاج وطرائقه في خطبة "ذمّ الدنيا" للإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. فالخطابة من أهم الفنون الأدبية التي تسعىٰ إلىٰ التأثير في نفوس المتلقين، لذا فهي تحفل بالأساليب البلاغية التي تكشف عن المعنىٰ بهدف الإقناع. إن "موضوع نظرية

الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدِّي بالأذهان إلىٰ التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم... وغاية كلّ حجاجٍ أن يجعل العقول تذعن لما يُطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان،

الكلمات المفتاحية: الحجاج، البلاغة، الإمام عليّ، ذم الدنيا، بلاغة الحجاج.

The eloquence of pilgrims in the sermon "Slander of the world" by Imam Ali bin Abi Talib.

Reham Mukhtar Mohamed Mohamed Jumai.

Job Description: Lecturer of Rhetoric and Criticism at Al-Azhar University, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Alexandria.

Emial: rehammokhtar-islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract:

This research deals with the eloquence of pilgrims in the sermon "slander of the world" of Imam Ali bin Abi Talib _may God be pleased with him_ this sermon represents a persuasive speech aimed at influencing the hearts of the addressees and luring them to acquiesce and believe the validity of his words, may God be pleased with him. Imam Ali relied in his sermon on the mechanisms of argumentation aimed at convincing the addressee and believing what is said, and these mechanisms varied and varied in the sermon in terms of the elements of arguments, tools of pilgrims and means of linguistic and rhetoric, and then links of pilgrims, which contributed significantly to the process of convincing the addressees of the idea of the demise of the world and its invalidity.This study also seeks to highlight the characteristics of pilgrims through the sermon of slander of the world, and aims to clarify how the imam employs the tools and means of persuasion to reach the minds of the hearers and convince them of his thought and belief. If the pilgrims rely on special tools and methods in providing proofs and evidence that attract the attention of the addressee and lure him until the process of persuasion and influence is achieved to reach him to the speaker's goal, this study aims to reveal the tools and methods of pilgrims in the sermon "Defamation of the World" by Imam Ali bin Abi Talib.

Public speaking is one of the most important literary arts that seek to influence the hearts of the recipients, so it is full of rhetorical methods that reveal meaning for the purpose of persuasion. "The subject of the theory of pilgrims is the study of discourse techniques that would lead the mind to accept the theses presented to it, or increase the degree of delivery... The purpose of every pilgrim is to make minds submit to the opinions put to them, or to increase the degree of such acquiescence.

Keywords: Pilgrims, Rhetoric, Imam Ali, Slander of the world, Eloquence of pilgrims.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف المرسلين، سيدنا "مُحَمَّد" وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد...

فقد أولىٰ الدارسون عنايتهم بالخطاب، باعتباره وسيلة مهمَّة للوصول إلىٰ عقل المخاطب، ومن ثَمّ إقناعه بفكر المتكلم ومعتقده، وكان لنظرية الحِجاج دورٌ كبيرٌ في توجيه الخطاب عن طريق الأساليب والوسائل التي يعتمدها المتكلم في خطابه بهدف استمالة المخاطبين والتأثير فيهم.

وإذا كان الحِجاج يعتمد علىٰ أدوات وطرائق مخصوصة في تقديم البراهين والأدلة التي تجذب انتباه المخاطب وتستدرجه حتىٰ تتحقق عملية الإقناع والتأثير للوصول به إلىٰ بغية المتكلم، فإنَّ هذه الدراسة تهدف إلىٰ الكشف عن أدوات الحجاج وطرائقه في خطبة "ذمّ الدنيا" للإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

فالخطابة من أهم الفنون الأدبية التي تسعىٰ إلىٰ التأثير في نفوس المتلقين، لذا فهي تحفل بالأساليب البلاغية التي تكشف عن المعنىٰ بهدف الإقناع.

إن "موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدِّي بالأذهان إلىٰ التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم... وغاية كلّ حجاجٍ أن يجعل العقول تذعن لما يُطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وُفِّق في جعل حِدَّة الإذعان تقوىٰ درجتها لدىٰ السَّامعين بشكلٍ يبعثهم علىٰ العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه) أو هو ما وُفِّق علىٰ الأقل في جعل السامعين مهيَّئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة"

وقد اعتمد الإمام عليّ في خطبته علىٰ وسائل إقناعية؛ لحمل المخاطبين علىٰ التصديق والتسليم من خلال الحجج والبراهين دون اللجوء إلىٰ القوة في توجيه

المخاطبين وتعديل ثقافتهم ومعتقداتهم وأفكارهم، من هنا جاء اختيار موضوع هذا البحث: (**بلاغة الحِجَاج في خُطبة "ذَمّ الدنيا" للإمام عليّ بن أبي طالب** رضي الله عنه)

❁ **أهداف البحث:**

_ استجلاء أدوات الحجاج ووسائله في خطبة سيدنا عليّ _رضي الله عنه_ والتأكيد علىٰ أهميتها في عملية التأثير والإقناع.

_ الوقوف علىٰ كيفية توظيف الإمام عليّ لأدوات الحجاج حتىٰ يصل بالمخاطب إلىٰ حال الاقتناع والرضا.

❁ **منهج البحث:**

اتبعت الدراسة المنهج التحليلي الذي يقوم على تحليل النص لاستجلاء تقنيات الحجاج وآلياته في كلامه رضي الله عنه.

❁ **خطة البحث:**

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتألّف من: مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعة مباحث، وخاتمة، وثَبَتِ المصادرِ والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المقدمة: بيَّنتُ أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وأهمية دراسته، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

التمهيد: بينت مفهوم الحجاج، والخطابة، ثم التعريف بسيدنا عليّ رضي الله عنه.

وقُسِّم البحث إلى أربعة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: **العناصر الحجاجية في الخطبة.**

المبحث الثاني: **أدوات الحجاج ووسائله اللغويَّة.**

المبحث الثالث: **حجيَّة الصورة البيانية.**

المبحث الرابع: **حجية الفنون البديعيّة.**

الخاتمة: وتشتمل علىٰ أهم النتائج التي توصّل إليها البحث، وثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

والله وليّ التوفيق

تمهيد

مفهوم الحجاج:

إذا كانت البلاغة هي: "استدراج الخصم إلىٰ الإذعان والتسليم"(١) كما يقول ابن الأثير، فإنها بذلك تُبنىٰ علىٰ عنصري الإقناع والتأثير، وهما الأصل في عملية الحجاج، إذ تهدف إلىٰ نتيجةٍ واحدةٍ هي إقناع المخاطب بما يُلقىٰ عليه.

أولًا الحجاج في اللغة:

تدور مادة (حجج) حول القصد، يقال: حجه يحجه حجا أي قصده، وحججتُ فلانًا أي قصدته، والمحجة: الطريق، ومحجة الطريق: هي المقصد والمسلك.

والحِجاج من قولهم: حاججته أُحاجُّه حجاجًا ومحاجَّة حتىٰ حَجَجْته أي: غلبته بالحجج التي أدليت بها... والحجة: الدليل والبرهان، وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل مِحجاج أي جَدِل، والتّحاجُّ: الخصومة، وجمع الحجة حجج وحجاج، وحجَّه يحجه حجًّا: غلبه علىٰ حجَّته، واحتجَّ بالشيء: اتخذه حجَّة، قال الأزهري: إنما سميت حجة؛ لأنها تُحَجُّ أي تُقْصَد؛ لأن القصد لها وإليها(٢).

وفي مقاييس اللغة: "يقال: حاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع: حجج، والمصدر الحجاج"(٣)

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير جـ٢/ ٢٠٥، ت: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (حجج)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٩٩م

(٣) معجم مقاييس اللغة جـ ٢/ ٣٠، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة، ١٩٩٧م.

وعليه، فالمعنىٰ اللغوي للحجاج يدور حول القصد والإقناع، والحجاج يحمل معنىٰ الخصومة والنزاع، والجدل، والادعاء مصحوبًا بالدليل والبرهان.

ثانيًا الحجاج في الاصطلاح:

الحجة عند الجرجاني: "ما دلَّ به علىٰ صحة الدعوىٰ، وقيل: الحجة والدليل واحد"(١) فالحجة عنده مدمجة في دليلها لا تنفكّ عنه.

إن "موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلىٰ التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"(٢)

ومن أدق ما قيل في تعريف الحجاج أنه: "هو الكشف والإيضاح عن المعنىٰ المقصود بتوظيف الحجة بيانيًّا؛ حتىٰ تتمكَّن من النفس والعقل معًا، والهدف ههنا ليس الفهم والإفهام فحسب، بل إن الأمر يتعلق بالتأثير والإقناع بالطرح المقدَّم"(٣)

وعليه، فإن "القرآن الكريم خطابٌ حجاجيٌّ من الطراز الأول؛ لكونه جاء ردًّا علىٰ خطابات تعتمد عقائد ومناهج فاسدة، ولكنه يتخذ من الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن أسلوبًا في الدعوة إلىٰ الدين الجديد، ويوظِّف من أجل ذلك جميع أنواع الحجج سواء كانت برهانية أو إقناعية، لهذا اشتمل علىٰ جميع أنواع البراهين،

---

(١) التعريفات ص ٧٣، للعلامة علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر، د.ط، د.ت

(٢)في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ص١٣، أ.د/ عبد الله لصولة، مسكيلياني للنشر، ط١، ٢٠١١م..

(٣) بلاغة الخطاب الحجاجي في النثر الفني (الخطابة في العصر الأموي أنموذجا) ص ٩٣، أ.د/ عبد الرحمن رجا الله السلمي، مجلة الأثر، العدد ٢٩، ٢٠١٧م.

والمتتبع لآي الذِّكر الحكيم يجد هذه الظاهرة (ظاهرة الحجاج) بارزة بقوة في كل القضايا التي يطرحها، وكأنه مبنيٌّ عليها من أَلِفه إلىٰ يائه، يجده يستعمل الحجج بشتىٰ أنواعها، سواء كانت لغوية أسلوبية، أو تاريخية، أو واقعية، أو فكرية، أو برهانية، أو غير ذلك"(١)

الخطابة:

أَوْلَىٰ العربُ الخطابَ عنايةً فائقة، فجعلوا مدار الكلام علىٰ حسب المخاطب "فإذا كان موضع الكلام علىٰ الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام علىٰ طبقات الناس، فيخاطب السّوقيّ بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلىٰ ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"(٢)

والخطبة تعدّ من أهمِّ الفنون التي تهدف إلىٰ التأثير والإقناع بفكرة معينة لدىٰ مخاطبين معينين، كما أنها أدقُّ وسيلة للإفصاح عن العملية الحجاجية، أو هي الصورة الحسية التي تعكس النظرية الحجاجية.

وعليه، فـ "الخطابة هي فن الإقناع، وهي الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان، وتلك المهمة ليست من شأن أيّ فن آخر"(٣)

"إن الخطابة بما أنها نوع من القول، فإن هذا القول له بناؤه وأسلوبه، وأهم ما يميز هذا الأسلوب الخطابي هو أنه إقناعي وبلاغي... ويمكن اختصار أهم أهداف

---

(١) الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة ص ١٠،١١_ حافظ إسماعيلي علوي، ومجموعة من الباحثين_ دار ورد الأردنية للنشر_ ط١_٢٠١١م.

(٢) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري ص ٣٩، تحقيق: د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١،١١٩٩م

(٣) الخطابة لأرسطو، ص٨،٢٩ ترجمة: د/ عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد، د.ط، د.ت

الحجاج الخطابي والبلاغي في العناصر الآتية: التأثير في المتلقي وجعله يتقاسم مع المخاطِب اعتقاده واقتناعه الخاص، أو التأثير في المتلقي لجعله يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريده المخاطِب، واستمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذهنًا وعاطفة (عقلًا وقلبًا) لكسب تأييده"(١)

وعليه، فالخطابة: "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة"(٢)

التعريف بسيدنا عليّ بن أبي طالب _رضي الله عنه_:

اسمه:

"علي بنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ القرشيّ الهاشميّ، ابن عمّ رسول الله _ﷺ_ وأمّ عليّ فاطمة بنت أسد بن هاشم.

كنيته:

أبو الحسن نسبة إلىٰ ابنه الأكبر الحسن، وهو من ولد فاطمة بنت رسول الله _ﷺ_ سيدة نساء العالمين، وأبو السّبطين، وهو أول هاشمي وُلد بين هاشميين، وأول خليفة من بني هاشم، وكني أيضًا بأبي هاشم، وأبي تراب، كناه بها رسول الله_ﷺ_ وكان يفرح إذا نودي بها(٣).

---

(١) الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص،١٠٧، ١١١، حبيب أعراب، عالم الفكر، العدد الأول ٢٠٠١م

(٢) تلخيص الخطابة ص ١٥، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ص٨٧١، الإمام عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجذري المعروف بابن الأثير ت:٦٣٠ه)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ.

لقبه:

لقِّب بأمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين.

مولده:

ولد قبل البعثة بعشر سنين، وقيل: تسع سنين، وقد تواترت الأخبار أن عليًّا قد ولد في جوف الكعبة(١)

إسلامه:

هو أوَّل من أسلم مع رسول الله ﷺ وقيل: هو أوَّل من صلَّىٰ، وكان ابن عشر سنين، أو تسع سنين، ويقال: دون التسع، روي عنه أنه قال: لما خرج رسول الله إلىٰ المدينة في الهجرة أمرني أن أقيم بعده حتىٰ أؤدِّي ودائع كانت عنده للناس، فأقمت ثلاثًا فكنت أظهر، ما تغيبت يومًا واحدًا، ولذا كان يسمَّىٰ الأمين(٢).

صفته:

كان عليه السلام عريض اللحية، أي ضخم اللحية، أصلع علىٰ رأسه زُغَيْبات أي شعيرات خفيفة، ضخم المنكبين، ثقيل العينين عظيمهما، كان أقرب إلىٰ القِصَر.

مشاركته في الغزوات:

لم يتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك؛ خلفه في أهله، فقال بعض الناس: ما منعه أن يخرج به إلا أنه كَرِهَ صُحبته، فبلغ ذلك عليًّا فذكره للنبي ﷺ،

---

(١) ينظر سيرة أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) شخصيته وعصره، ص٢٢، علي محمد محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ، ط١، ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (العشرة المبشرون بالجنة)، ص: ١٩٢، الزهراء للإعلام العربي، ط٤، ١٩٨٨م.

فقال: أيا ابن طالب أما ترضىٰ أن تنزل منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبيّ بعدي؟(١)

فضائله ومناقبه:

عليّ بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشّرين بالجنة، أسلم صغيرًا، وكان من أوائل مَن أسلموا، شارك في كل الغزوات، دافع عن الإسلام صغيرًا وكبيرًا، عُرف بالشجاعة والفطنة والفقه بأمور الدين.

من مناقبه رضي الله عنه، ما صرَّح به النبي ﷺلسيدنا عليّ بقوله: (أنت منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبيّ بعدي) ومنازل هارون من موسىٰ معروفة، أولها: أنه شريكه في النبوَّة، والثانية: أنه أخوه في النسب، والثالثة: أنه المقدَّم عند موسىٰ _عليه السلام_ علىٰ جميع البشر، وهذه هي التي وجبت لعليٍّ بن أبي طالب، وهي منزلته من النبيِّ ﷺ(٢)

كان أمير المؤمنين عليّ _رضي الله عنه_ علىٰ مبلغ كبير من العلم بالقرآن وعلومه، ولذلك كان كثيرًا ما يحتج بالقرآن ويتلو الآية التي يستند إليها لبيان الحكم الشرعيّ، امتاز بقوة الفهم وسعة الإدراك واشتهر بها، ومن الأمثلة علىٰ ذلك: نادىٰ رجل من الخوارج عليًّا _رضي الله عنه_ وهو في صلاة الفجر فقال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

---

(١) ينظر الطبقات ص ١٩٢ وما بعدها

(٢) المعيار والموازنة في فضائل الإمام علي، ص٢١٩ وما بعدها، لأبي جعفر الإسكافي، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط١، ١٩٨١م

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الزمر: ٦٥، فأجابه عليٌّ ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الروم:٦٠].

ومن الأصول والأسس التي سار عليها ﷺ في استنباط الأحكام من القرآن الكريم وفهم معانيه:

١-الالتزام بظاهر القرآن الكريم حين لا يرىٰ قرينة تقتضي صرفه عن ظاهره

٢- حمل المجمل علىٰ المفسَّر

٣-حمل المطلق علىٰ المقيَّد

٤- العلم بالناسخ والمنسوخ، قال الأئمة: لا يجوز لأحدٍ أن يفسر كتاب الله _تعالىٰ_ إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد أكَّد عليٌّ _رضي الله عنه_ علىٰ هذا المعنىٰ عندما عاتب قاصًّا بقوله: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت.

٥- ومن منهجه في فهم القرآن أيضا: النظر في لغة العرب، ومن ذلك فهمه ﷺ من قوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ المائدة: ٦ اللمس هو الجماع، ولكن الله _تعالىٰ_ كنىٰ عنه.

٦- العلم بمناسبة الآيات، فالعلم بالمناسبة التي نزلت فيها الآيات والسبب الداعي لذلك يفيد في إدراك معنىٰ الآية، واستنباط الحكم منها؛ لأن بيانَ النزول طريقٌ قويٌ في فهم معاني الكتاب العزيز، وقد بلغ أمير المؤمنين عليٌّ _رضي الله عنه_ مبلغًا في العلم بأسباب نزول الآيات، لذا كان يقول عن نفسه حاثًّا علىٰ سؤاله عن كتاب الله: (سلوني، سلوني، سلوني عن كتاب الله _تعالىٰ_ فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار)[1]

---

(١) سيرة أمير المؤمنين ص٥٧:٥١

تربّىٰ أمير المؤمنين علىٰ يدي الرسول -ﷺ- فكان الرسولُ الرَّافدَ القويَّ الذي أثَّر في شخصيته وصقل مواهبه وفجَّر طاقته، وهذَّب نفسه، وطهَّر قلبه ونوَّر عقله وأحيا روحه، فكان أمير المؤمنين مِن أحرص الصحابة علىٰ طاعة رسول الله -ﷺ- فقد قال رضي الله عنه: (ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ)، وقال أيضا: (ألا إني لست بنبيّ ولا يوحىٰ إليّ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة محمد ﷺ)، وهو نموذج فريد بالتمسك بالسنة والالتزام بها والدعوة لها، ومن هذا المفهوم والتصوُّر الواضح لأهمية طاعة الرسول واتباع سنته انطلقت أفعال أمير المؤمنين، وكان رضي الله عنه يعتني بالسنة ويتحرَّىٰ ويتثبت في روايتها وفي أخذها، فقد قال رضي الله عنه: (إذا حدثتكم عن رسول الله، فلئن أخرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أكذب عليه)، فأصبحت نظرته رضي الله عنه إلىٰ الله _تعالىٰ_ والكون والحياة والنار والقضاء والقدر، وحقيقة الإنسان، وصراعه مع الشيطان مستمدَّة من القرآن الكريم والهدي النبوي(١).

وفي ضوء هذه المعاني وما ثبت عن أمير المؤمنين من ملازمته للنبي ﷺ، وحرصه علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ووعيه بهما، كان لزامًا أن ننظر في كلامه رضي الله عنه باعتبار هذا كله، تربيته وثقافته وفكره، ولا يمكن أن نجرِّد فكره ومعتقده من هذا.

(١) سيرة أمير المؤمنين ص ٦٢

بين يدي الخطبة

نصّ الخطبة[١]:

"أمَّا بعد، فإنِّي أُحَذِّرُكم الدُّنيا؛ فإنها حُلْوةٌ خَضِرة، حُفَّت بالشهوات، وتحبَّبَتْ بالعاجلة، ورَاقَت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزيَّنت بالغُرور، لا تدوم حَبْرَتُها، ولا تُؤْمَن فجعتُها، غَرَّارةٌ ضَرَّارة، حائلةٌ زائلةٌ، نافدةٌ بائدة، أكَّالةٌ غوَّالة، لا تعدو _ إذا تناهت إلى أمنيَّة أهلِ الرَّغبة فيها والرِّضاء بها _ أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ الكهف: ٤٥

لم يكن امرؤ منها في حَبْرةٍ إلا أعقبته بعدها غَبْرَة، ولم يلقَ من سرَّائها بطنًا، إلا منحته من ضرَّائها ظهرًا، ولم تَطُلَّه فيها دِيمَةُ رخاءٍ، إلا هَتَنَتْ عليه مُزْنةُ بلاء.

وحرِيٌّ إذا أصبحت له منتصرة، أن تُمسي له متنكِّرة، وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى، أَمَرَّ منها جانبٌ فأوبى!

لا ينال امرؤٌ من غضارتها رَغَبًا إلا أرهقته من نوائبها تعبًا، ولا يُمسي منها في جناح أمنٍ، إلا أصبح على قَوادِمِ خَوف.

غرَّارةٌ غُرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ مَن عليها، لا خير في شيءٍ من أزوادها إلا التَّقوى.

مَنْ أَقَلَّ منها استكثر مما يُؤَمِّنُهُ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عمَّا قليل.

كم من واثقٍ بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صَرَعَتْه، وذي أُبَّـهةٍ قد جعلته حقيرًا، وذي نخوةٍ قد ردَّتْهُ ذليلاً[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ٧/ ٢٢٦ لابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

(٢) (الحبرة): السرور _ (حائلة): متغيرة _(نافدة): فانية _ (بائدة): منقضية _ (أكالة): قتالة_ (غوالة): مهلكة _ (يوبقه): يهلكه_ (الأُبَّهة): الكبر (ينظر شرح نهج البلاغة ص٢٢٩) (الغضارة): النعمة والسعة في العيش، (غرَّارة): من قولهم غرَّه يغره إذا خدعه وأطمعه بالباطل (ينظر لسان العرب مواد "غضر، غرر، رنق")

سلطانها دُوَلٌ، وعيشها رَنِقٌ، وعذبُها أُجاج، وحُلوُها صبِرٌ، وغذاؤها سمامٌ، وأسبابها رِمامٌ، حيُّها بعَرَض موت، وصحيحها بعَرَضِ سُقْمٍ، مُلْكُها مسلوبٌ، وعزيزها مغلوبٌ، وموفورها منكوبٌ، وجارها مَحْروبٌ.

ألستم في مساكن مَن كان قبلكم أطول أعمارًا، وأبقى آثارًا، وأبعد آمالاً، وأعدَّ عديدًا، وأكْثف جنودًا! تعبَّدوا للدُّنيا أيَّ تعبُّدٍ، وآثروها أيَّ إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زادٍ مُبَلِّغٍ ولا ظهرٍ قاطعٍ. فهل بلغكم أنَّ الدنيا قد سَخَتْ لهم نفسًا بفديةٍ، أو أعانتهم بمعونةٍ، أو أحسنت لهم صحبة! بل أرهقتهم بالفوادح، وأوهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفَّرَتْهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون.

فقد رأيتم تنكُّرها لمن دان لها، وآثرها وأخلدَ إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد.

وهل زوَّدتهم إلا السَّغَبَ، أو أحلَّتهم إلا الضَّنكَ، أو نوَّرت لهم إلا الظُّلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة!

أفهذه تؤثرون؟ أم إليها تطمئنون؟ أم عليها تحرصون؟!

فبئست الدار لمن لم يتَّهمها، ولم يكن فيها على وَجَلٍ منها(١).

---

(١) (رنق): كدِر من قولهم رنق الماء أي تكدَّر_ (أجاج): أي ملح وقيل: شديد المرارة_ (سمام): جمع سمّ وهو السِّمُّ القاتل_ (رمام): قطعة من الحبل بالية، يقال: رَمَّ الحبلُ أي تقطَّع_ (موفور): الوفر من المال والمتاع يعني الكثير الواسع_ (منكوب): النكبة تعني المصيبة_ (محروب): أي مسلوب، فهي لا تحمي جارًا ولا تمنعه. (الفوادح): المثقلات، فدحه الدَّيْن أي أثقله، (أوهقتهم): جعلتهم في الوَهَق وهو حبل تُشدّ به الإبل (القوارع): الشدائد والمحن والمصائب والدواهي. ينظر لسان العرب مواد (رنق، أجج، سمم، رمم، وفر، نكب، حرب، فدح، وهق)(ضعضعتهم): أذلتهم، يقال: ضعضعت البناء أي أهدمته- (عفَّرتهم للمناخر): ألصقت أنوفهم بالعفر وهو التراب_ (المناسم): جمع منسِم وهو خفّ البعير_ (السَّغب): الجوع_ (دان لها): أطاعها ومال لها. (ينظر شرح نهج البلاغة ص٢٣٢ وما بعدها)

فاعلموا_ وأنتم تعلمون_ بأنّكم تاركوها، وظاعنون عنها، واتّعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فصلت:/ ١٥ حُمِلوا إلى قبورهم، فلا يُدْعون رُكبانًا، وأُنزلوا الأجداث فلا يُدعَوْن ضيفانا، وجُعِل لهم من الصَّفيح أجنانٌ، ومن التراب أكفانٌ، ومن الرُّفات جيرانٌ، فهم جيرةٌ لا يُجيبون داعيًا، ولا يمنعون ضّيْمًا، ولا يُبالون مَنْدَبةً، إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا، جميعٌ وهم آحاد، وجيرةٌ وهم أبعادٌ، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون. حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يُخْشى فَجْعُهم، ولا يُرجى دَفْعهم، استَبْدَلوا بظهر الأرضِ بطنًا، وبالسعة ضيقًا، وبالأهل غربةٍ، وبالنور ظلمةً، فجاءوها كما فارقوها، حفاةً عُراةً قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدَّائمة، والدَّار الباقية[1]، كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٤

(١) (الصفيح): الحجارة_ (الأجنان): القبور_ (الرُّفات): العظام البالية_ (المندبة): الندب علىٰ الميت_ (جيدوا): مُطروا_ (قحطو): انقطع المطر عنهم فأصابهم القحط. ينظر شرح نهج البلاغة ص٢٣٣.

المبحث الأول

العناصر الحِجاجية في الخطبة:

العناصر الحجاجية: هي تلك الأدوات التي يستخدمها الخطيب لبناء حجته وإقناع المخاطبين بها، ويعتمد نجاح الخطبة علىٰ التكامل بين هذه العناصر، وكيفية توظيفها بمهارة وبراعة حتىٰ يستلب الخطيبُ عقولَ سامعيه وقلوبهم، وكان من أهمِّ العناصر الحجاجية في الخطبة: التصوير الحسِّيّ، أسلوب الاستدراج، الاستشهاد.

أولًا: التصوير الحسِّيُّ:

هو أسلوب أدبيّ يهدف إلىٰ تمكين المعنىٰ في ذهن المتلقي بطريقة واضحة عن طريق إدراك الحواس، وقد لجأ الإمام عليّ في جُلِّ خطبته إلىٰ كثير من الأوصاف الحسيّة التي يتم من خلالها تأليف صورة واضحة من شأنها استثارة حواسّ الجمهور، فاعتمد في تصوير الدنيا علىٰ صورٍ محسوسةٍ تؤكد مفاتنها وبهجتها الزائفة مثل قوله: "فإنَّها حلوةٌ خضرةٌ"، "تحبّبت بالعاجلة"، "وراقت بالقليل"، "تحلَّت بالآمال، وتزيَّنَتْ بالغُرور"، "أكَّالة غَوَّالة"، "كم من واثق بها قد فجعته"، "وذي طمأنينة قد صرعته".

هذه الأوصاف المحسوسة تعكس صورة خداع الدنيا وزيفها، وتشير إلىٰ تقلباتها المستمرة، فترسِّخ في ذهن السامع زوالها وفناءها مهما بدا منها ما يخالف ذلك، فتظهِر للسامع أسباب انجذابه لها وتعلقه بها، في حين أن بهجتها ورونقها لا يدوم بحال.

إن تصوير الدنيا بكونها حلوة خضرة، يكشف للمخاطبين الأسباب التي من أجلها يتناسىٰ الناس عيوبها ومخاطرها التي تتخفَّىٰ وراء مباهجها الفاتنة، كما يعكس ضعفها وهوانها، فهي كالنبات الأخضر الذي يجف ويذبل في سرعة، كما أن

تصويرها بالتحلي والتزيّن يعكس خداعها وتلاعبها، وكأن زخرفها وزينتها لا عن طبعٍ، وإنما عن تكلّف لقصد الغواية وإلحاق الضرر بأهلها، وبهذه الصورة يدرك السامع كيف تتجمّل الدنيا وتتزين بغرور لا حقيقة له، بحيث تَحْمل الإنسان علىٰ فعل ما يضرّه لميله إليه، فهي تتحبّب إلىٰ الناس وتتودّد إليهم بصورتها الخادعة ولذتها العاجلة التي تظهرها للإنسان حتىٰ ينغمس في شهواتها.

إن وصف الدنيا في قوله: "غرَّارة ضرَّارة، أكَّالة غوَّالة" يستحضر في ذهن السامع صورة شخصٍ مراوغ، مخادع، يخدع أصحابه ويفتنهم؛ ليلحق بهم الأذىٰ دون شفقة.

ثم يصوِّرها في صورة حيوان يلتهم فريسته ويغتالها (أكَّالة غوَّالة)، يشير بذلك إلىٰ أنها تغدر بأصحابها، وتستهلك حياتهم وآمالهم، فيكشف عن حقيقة الدنيا وبطلان متاعها في صورة محسوسة، تعطي انطباعًا نفسيًّا للمتلقي يثير الحذر من الدنيا والترقّب لها، وتهدف إلىٰ إقناعهم بعدم الاطمئنان إليها والوثوق فيها، فكان للتعبير بالصورة الحسية دور إقناعيّ يؤثر في النفوس ويحملها علىٰ التصديق والاقتناع.

وفي سياق الحديث عن موقف الدنيا تجاه السابقين ممن كانوا أطول أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، الذين تعبَّدوا للدنيا وآثروها علىٰ الآخرة يقول: "فهل بلغكم أن الدنيا سَخَتْ لهم نفسًا بفديةٍ أو أعانتهم بمعونة، بل أرهقتهم بالفوادِح، وضعضعتهم بالنَّوائب، وعفَّرَتهم للمَناخِر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون"، فدلَّ علىٰ شدة بلاء الدنيا ومكائدها، وأنها لا تدع شيئًا إلا أفسدته.

إن هذه الصور التي يعبِّر بها الخطيب عن أمور يصعب وصفها علىٰ طريقة التعبير بالحقيقة قد أسهمت بشكل كبير في إقناع السامعين بما ينبغي عليهم تجاه الدنيا، وعدم الاغترار بمظاهرها الزائفة.

فالتصوير الحسيّ يستثير المشاعر والأحاسيس مما يجعل الحجة أكثر عمقًا وأقوىٰ تأثيرًا؛ إذ يجعل السامع يشاهد الصورة كاملة وكأنه يعيشها بذاته، وهذا أدعىٰ إلىٰ الإقناع والتأثير.

لا شك أن التصوير الحسي لا سيما الوارد في مقدمة الخطبة أقوىٰ حجة لإقناع المخاطبين بقيمة الدنيا الحقيقية، وافتتاح الخطبة بهذا اللون من التعبير عامل مهم جدًا في جذب انتباه المخاطبين؛ إذ تعدّ المقدمة نقطة انطلاق المعنىٰ، وهي جذر المعنىٰ وعموده الذي يُبنىٰ عليه الكلام، ومجيئها علىٰ طريقة التصوير الحسي عامل مهم في إقناع المتلقي وامتلاك حواسه حتىٰ تتغلغل الفكرة في نفسه وتتمكن منها؛ إذ يخلق التصوير الحسي في النفس صورة حيَّة تكاد تنطق بمقصود المتكلم ومراده، ولا أدلّ علىٰ ذلك مما جاء به سيدنا عليّ _رضي الله عنه_ في تشبيه الدنيا من الاستشهاد بقوله تعالىٰ: ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾ الكهف: ٤٥

وقد وفق الإمام عليّ في الاستشهاد بهذه الآية الكريمة التي رسمت هذه الصورة الواضحة للدنيا فعرضت في إيجاز حال الدنيا ومآلها، وما تكون عليه من القوة والازدهار ثم ما يعقب ذلك من ضعف وفناء وزوال، فالصورة الحسية أسهمت بشكل كبير في توضيح الغرض من الخطبة حيث التحذير من الدنيا وعدم الاغترار بإقبالها ومفاتنها، فبين موضوع الخطبة والاستشهاد بالقرآن مناسبة واضحة؛ إذ المقصود إظهار الدنيا في صورة هشة ضعيفة، كل ما يبدو منها ما هو إلا مباهج ومفاتن زائلة، شأنها في ذلك شأن النبات الأخضر الذي يجذب الناظرين ثم سرعان ما يجفّ وينتهي، لذا استشهد بما يحمل هذا المعنىٰ.

ثانيًا: أسلوب الاستدراج:

إن أسلوب الاستدراج يعد أسلوبًا إقناعيًّا من الدرجة الأولىٰ، إذ يعتمد المتكلم فيه علىٰ التأثير في ذهن المخاطب عن طريق جذب انتباهه والسيطرة علىٰ تفكيره تدريجيًّا.

وقد اتخذ الإمام عليّ من أسلوب الاستدراج وسيلةً لجذب المستمعين وإقناعهم والتأثير في عقولهم وقلوبهم، حيث التدرج في عرض الأسباب والنتائج بطريقة لا وجود فيها لعنصر المفاجأة من خلال سرده مجموعة من الحجج والبراهين التي تصل بالمخاطبين في نهاية الخطبة إلىٰ القبول والتسليم، مفتتحًا كلامه بأوصاف جماليّة لافتة، ثم التدرج بعد ذلك في ذكر العيوب والمساويء.

وأوَّل ذلك ما كان في مقدمة الخطبة من وصف جمال الدنيا ونضارتها التي تجذب النفوس إليها، فهذا المطلع حريٌّ بجذب انتباه المستمعين، وتهيئتهم لما يُلقىٰ عليهم، فمن البداية بالجماليات قوله ﷺ في وصف الدنيا: "فإنها حلوة خضرة" فبدأ بمدح الدنيا من خلال هذا الوصف الذي يبعث علىٰ الإعجاب والبهجة، ثم ينتقل إلىٰ ذكر عيوبها ومخاطرها بشكل تدريجي، مستخدمًا عبارات قوية تعكس تجبُّرها وفتكها بأهلها، من ذلك قوله: "غرَّارةٌ ضرَّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكَّالة غوَّالة، لا تعدو _إذا تناهت إلىٰ أمنية أهل الرَّغبة فيها والرِّضاء بها_ أن تكون كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ {الكهف: ٤٥} هذا التناقض يعمل علىٰ جذب الانتباه، ويخلق حالة من التعجب والتساؤل لدىٰ السامعين عن أسباب هذا التناقض.

فأكَّد بذكر هذه العيوب والمساويء علىٰ حقيقة زوال الدنيا وفتنتها وفنائها، واستناد الخطيب بهذه الآية الكريمة أدعىٰ للاقتناع والوثوق في صدق كلامه ﷺ.

ثم يضع أمام المخاطبين مقارنة بين خيرها وشرِّها، بين ما تقدِّمه لهم من نفعٍ، وبين ما تدَّخره لهم من الشرِّ من خلال ذِكر أحوال الناس في الدنيا وما تفعله بهم في قوله: "لم يكن امرؤٌ منها في حَبْرَةٍ إلَّا أَعْقَبَتْه بعدها عَبْرَة، ولم يلقَ من سرَّائها بطنًا إلا منحته من ضَرَّائها ظهرًا، ولم تَطُلَّهُ فيها ديمةُ رخاءٍ إلَّا هَتَنَتْ عليه مُزْنةُ بلاء، وحَريٌّ إذا أصبحت له منتصرةً أن تُمسِي له مُتَنَكِّرة، وإن جانبٌ منها اعْذَوْذَبَ واحْلَوْلَىٰ أَمَرَّ منها جانبٌ فَأوبَىٰ، لا ينال امرؤٌ من غَضَارتِها رَغَبًا إلَّا أَرهقته من نوائبها تعبًا، ولا يُمسي منها في جَناحِ أَمْنٍ، إلا أصبح علىٰ قَوادِمِ خوف"

ثم يذكر قصصًا واقعيَّة يوضِّح من خلالها عواقب التعلق بالدنيا والوثوق فيها والاطمئنان إليها، مشيرًا إلىٰ هذا الواقع الذي يشاهدونه ويعيشون فيه، فلا يدع لهم مجالًا لأدنىٰ شكٍّ في صحة كلامه، فيقرُّون بسلامته وصدقه، فيقول: "ألستم في مساكن مَن كان قبلكم أطولَ أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، وأبعدَ آمالًا، وأَعَدَّ عديدًا، وأكثفَ جنودًا..." فاتَّخذ من هذه الطريقة أداةً قويةً تعمل علىٰ تحريك مشاعرهم، وكأنِّي بهم يجيبون بلسانه حين قال: "فهل بلغكم أن الدنيا سَخَتْ لهم نفسًا بفديةٍ، أو أعانتهم بمعونةٍ، أو أحسنت لهم صحبة؟ فيقولون: "بل أرهقَتْهُم بالفوادِح وأوهقتهم بالقوارع، وضَعْضَعَتْهم بالنَّوائبِ، وعفَّرتْهُم للمَنَاخِر، ووطئتهم بالمَناسِم، وأعانت عليهم ريب المنون"، هذه التساؤلات التي طرحها الإمام عليّ علىٰ المخاطبين عامل مهم جدًّا في إثارة فكرهم وحملهم علىٰ التفكُّر في قيمة الدنيا.

ثم يختتم خطبته بالتأكيد علىٰ زوال الدنيا وانتهائها بذكر أحوال الموتىٰ، ليذكِّر المخاطبين بمصيرهم بعد الموت كما كان أسلافهم، من ذلك قوله: فاعلموا_ وأنتم

تعلمون_ بأنَّكم تاركوها، وظاعنون عنها، واتَّعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فصلت:/ ١٥ حُمِلوا إلىٰ قبورهم، فلا يُدْعون رُكبانًا، وأُنزلوا الأجداث فلا يُدعَوْن ضيفانا، وجُعِل لهم من الصَّفيح أجنانٌ، ومن التراب أكفانٌ، ومن الرُّفات جيرانٌ، فهم جيرةٌ لا يُجيبون داعيًا، ولا يمنعون ضّيْمًا، ولا يُبالون مَنْدَبةً، إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا، جميعٌ وهم آحاد، وجيرةٌ وهم أبعادٌ، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يُخْشىٰ فَجْعُهم، ولا يُرجىٰ دَفْعهم، استَبْدَلوا بظهر الأرضِ بطنًا، وبالسعة ضيقًا، وبالأهل غربةً، وبالنور ظلمةً، فجاءوها كما فارقوها، حفاةً عُراةً قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلىٰ الحياة الدَّائمة، والدَّار الباقية، كما قال تعالىٰ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠٤

إذن أسلوب الاستدراج _هنا_ كان عنصرًا حجاجيًا رئيسًا في الخطبة؛ فهو أداة قوية في يد الخطيب، يوجِّه بها تفكير المستمع نحو الهدف الأصيل للخطبة، وهو إصلاح النفس وتوجيهها نحو الخير.

ثالثًا: الاستشهاد:

الاستشهاد من الوسائل القوية التي يعتمدها المتكلم لتقوية المعاني وتأكيدها وترسيخها في الذِّهن؛ لِمَا له من تأثير في نفس السامع، إذ به تظهر الحقائق وتنكشف، وهو من أفضل الطرق للإقناع والاحتجاج، وهو يجري "مجرىٰ التذييل لتوليد المعنىٰ، وهو أن تأتي بمعنىٰ ثم تؤكِّده بمعنىٰ آخر يجري مجرىٰ الاستشهاد علىٰ الأول، والحجة علىٰ صحته"(١)

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ص٤٧٠ لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١١٩٨م

أولا : حجية الشاهد القرآني:

اعتمد الإمام عليّ في خطبته علىٰ القرآن الكريم، باعتباره حُجَّة قاطعة الدلالة علىٰ معانيه، ففي سياق الحديث عن وصف الدنيا وتصويرها لإظهار حقيقة فنائها ومفاتنها الزائلة، نراه يأتي بما يؤكد هذه الحقيقة من آيات القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ **الكهف: ٤٥**

أراد الإمام أن يوضّح العلاقة بين مظهر الدنيا الجذاب ونهايتها الزائلة، وبين النبات الأخضر، فربط هذه الصورة بالآية الكريمة؛ ليشير إلىٰ أن هذه الدنيا تغرّ الناظرين وتجذبهم كما يغرّ النبات الأخضر العين ويجذبها، لكن النهاية محتومة وهي سرعة الزوال والفناء، فالنص القرآني يعزِّز الحجة ويضيف قوة دينية تجعل السامعين يشعرون بانسجام الحجج وتماسكها من خلال سلطة النص الديني مما يُلْزِم السامع بتقبُّل الرسالة والتسليم بصحتها.

وفي سياق الحديث عن دعوة المخاطبين بأن يتّعظوا بالأمم السابقة يقول: "واتّعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةٗۖ ﴾ فصلت: ١٥، فيحتج بكلام السابقين من خلال القرآن الكريم، ليؤكد علىٰ وصفهم بالقوة؛ حتىٰ لا يتوهم السامعون أن قولهم هذا من عند الخطيب، وأنهم بعد قوتهم هذه لم يقدروا علىٰ دفع الموت عن أنفسهم، ولم تنصفهم عليه الدنيا بل أعانت عليهم ريب المنون أي حوادث الدهر ومصائبه المهلكة التي فتكت بهم.

ثم يصف أحوالهم في قبورهم وما آلوا إليه إلىٰ أن وصل بهم إلىٰ الحياة الآخرة الدائمة، والدار الباقية فيأتي بقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا

﴿عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ الأنبياء: ١٠٤، فأكد علىٰ المخاطبين فراق الناس الدنيا ومغادرتها إلىٰ الدار الآخرة دون أن ينتفعوا منها بشيء، معزِّزًا حجته بهذا النص القرآني الدال علىٰ مفارقة الدنيا حفاة عراة كما جاءوها.

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول والأوثق للحقائق، والاستشهاد به يعطي الخطبة قدرًا كبيرًا من الإقناع والتأكيد علىٰ صدق ما يقوله المتكلم، كما أن الإتيان بالقرآن الكريم في أثناء الخطبة دليلٌ علىٰ قوة إيمان المتكلم وارتباطه بالكتاب المجيد، مما يترتب عليه ثقة المخاطبين وتصديقهم لما يقول، فلا أدلّ علىٰ صدق كلامه من الإتيان بكلام رب العالمين، فهو أقوىٰ حجة، وأقوىٰ أداة لتوضيح المعاني التي تتعلق بالواقع.

ثم إنَّ الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم يعد رابطًا قويًّا بين الواقع الدنيوي والقرآن الكريم، فأعطىٰ بذلك بُعدًا زمنيًّا لخطبته رضي الله عنه، فتبقىٰ حيَّة خالدة مؤثِّرة في كل زمان ومكان، فكان في الاستشهاد بالقرآن الكريم أقوىٰ وسيلة لتحقيق الهدف من وراء الخطبة والتأثير في نفوس السامعين.

ثانيًا: حجية الواقع:

تعدُّ هذه الخطبة من أبرز الخطب التي تناولت حقيقة الدنيا وزوالها، وقد اعتمد الإمام فيها علىٰ كثير من الأدلة الواقعية التي تبرهن علىٰ صدق كلامه، وهي من أقوىٰ الحجج والبراهين التي تؤثر في نفوس المخاطبين؛ حيث تُبنىٰ علىٰ ما يعيش فيه السامعون ويشاهدونه بأعينهم، وقد استخدم الإمام حجية الواقع بمهارة في سياق الحديث عن أحوال الدنيا وتقلباتها وأنها لا تدوم لأحد علىٰ حال، فأتىٰ بما يدعو إلىٰ التدبُّر والتفكُّر في أحوالها إذ يقول: "لم يكن امرؤ منها في حَبْرةٍ إلا أعقبته بعدها عَبْرة، ولم يَلْقَ من سرَّائها بطنًا إلا مَنَحته من ضرَّائها ظهرًا، ولم تَطُله فيها ديمة رخاء إلا

هَتَنَتْ عليه مُزنة بلاء، وحريٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكِّرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولىٰ، أَمَرَّ منها جانبٌ فأوبىٰ" فيؤكد أن أحدًا لم يعش في هذه الدنيا في سعادة ورخاء دون أن يلاحقه الحزن والشقاء

وفي سياق الحديث عن السابقين يقول: "ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، وأكثف جنودًا، تعبَّدوا للدنيا أيَّ تعبُّد، وآثروها أيَّ إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زادٍ مُبلِّغ"، فنراه يستخدم أمثلة واقعية يعيها كل إنسان يعيش في هذه الدنيا، فيقيم حجته علىٰ هذا الواقع الذي لا يمكن إنكاره ولا يشك فيه أحد، وهذا بدوره أدعىٰ لإقناع المخاطبين والتأثير فيهم، فالناس في كل زمان ومكان يدركون تمامًا أنهم أتوا إلىٰ الدنيا لاحقين، وأنهم قد سُبقوا بأممٍ من قبلهم، وهم يعلمون أن الدنيا لم تفدِ منهم أحدًا بفدية، ولم تُعن منهم أحدًا بمعونة، ثم يؤكد حجته عليهم بقوله: "فقد رأيتم تنكُّرها لمن دان لها، وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد"، كما يؤكد علىٰ علمهم بحقيقة الموت والفناء بقوله: "فاعلموا _وأنتم تعلمون_ بأنكم تاركوها وظاعنون عنها" وكأنه يقول لهم: لستم بحاجة إلىٰ دليل علىٰ ذلك؛ لأنكم تعلمونه.

المبحث الثاني
أدوات الحجاج ووسائله اللغويّة

اعتمد الإمام عليّ _ عليه السلام _ في خطبته علىٰ التأثير في نفس المخاطب وتوجيهه، محاولًا إقناعه بخطورة الانغماس في ملذات الدنيا والتعلق بها، عن طريق سَوْق الحجج والبراهين المناسبة لموضوعه، مستعينًا بأدوات ووسائل لغوية يستطيع من خلالها جذب انتباه المخاطب واحتواء عقله والسيطرة عليه، ومن ثَمَّ الوصول إلىٰ الهدف المرجو من الخطبة.

أولا: حجية التوكيد:

تعد خطبة "ذم الدنيا" نموذجًا رائعًا للخطابة الحجاجية، وقد استخدم الإمام مجموعة متنوعة من الأدوات والوسائل التي من شأنها إقناع المخاطبين والتأثير عليهم، وكان من أهم وأبرز أدوات الحجاج المستخدمة في الخطبة **أسلوب التوكيد**؛ حيث لجأ الإمام إلىٰ التوكيد في جلِّ خطبته بوصفه أداة حجاجية قوية، تأتي في كل استعمالاتها لقصد الإثبات والتحقق، ودفع الشكِّ والإنكار.

وقد وظف الإمام التوكيد في خطبته للتأكيد علىٰ معانيه، متكِّئًا علىٰ صوره المتنوعة، متَّخذا منها وسيلة للوصول إلىٰ عقول السامعين وقلوبهم، دون أن يكون هناك ما يشعرهم بفرض رأي أو إكراه.

وكان من أبرز صور التوكيد في الخطبة ما يأتي:

التوكيد بالأداة (إن):

افتتح الإمام عليّ خطبته مرتكزًا علىٰ التأكيد بـ (إن) في قوله: (فإنِّي أُحَذِّركم الدُّنيا)، مؤكِّدا تحذيرهم من خطورة الدنيا، قاصدًا إلىٰ إقناعهم وتقبلهم لنصائحه دون تردّد، مستخدمًا لفظ (التحذير) بما يحمله من معنىٰ التخويف والتهويل، ثم

يسوق حجته وهي وصف الدنيا بقوله: (فإنَّها حلوة خضرة)، مؤكدة بـ (إن) وهي أم أدوات التوكيد، ليرسخ في أذهانهم خطورة التعلق بالدنيا وشهواتها، فما جُعلت حلوة خضرة إلا لتميل إليها النفوس وتنجذب، ففيه إشارة لحسنها، وهذا من أهم الأسباب التي تجعل النفس تطلبها وترغبها، فينغمس الإنسان في ملذاتها وشهواتها، وكأنه ﷺ يقول: احذروا تلوُّنها وفتنتها، ولا تغرنكم حلاوتها وبهجتها ونضارتها، فما اخضرارها إلا دليل علىٰ سرعة زوالها كما يحدث للنبات الأخضر، فإنه سرعان ما يذبل وينتهي، وما تزينت إلا لتكون طريقًا ممهَّدا لابتلاء الناس، ليميز الله الخبيث من الطيب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف: ٧

ثم إن التأكيد علىٰ حلاوتها ونضارتها يجعل التحذير منها أشدَّ تأثيرًا، مما يقوِّي الحجة ويعززها، ويثير عاطفة السامع ويدفعه إلىٰ التفكير في عواقب الانشغال بها.

وجملة (الدنيا حلوة خضرة) جملة نبوية، وردت في حديث النبي ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)(١)

ومجيء هذا الوصف (حلوة خضرة) عقب التحذير عامل مهم في جذب انتباه المخاطب وتركيزه فيما يقال؛ لأن أسلوب التحذير والتخويف يقتضي أن يأتي بعده ما يبعث علىٰ الحذر، والإتيان بجملة (حلوة خضرة) يوهم بالإعجاب والسرور، فأتىٰ

(١) صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت:٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء رقم الحديث: ٢٧٤٢، جـ٤/ ٢٠٩٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

علىٰ عكس توقّع المخاطب، وهذا أدعىٰ لحضور أذهانهم، وإعمال فكرهم، فيحملهم علىٰ التفكُّر والتدبُّر في أحوالها المتناقضة، فما تزيَّنت الدنيا واعذوذبت إلا خدعة لأصحابها؛ للانغماس في ملذاتها والوقوع في مفاتنها، وكأنها ترسم صورة زائفة زائلة لا أصول لها، فما ظهر منها مما يسرُّ ويعجب إلا كما تتزين العجوز، فتظهر الزينةُ خلاف ما تبطن.

وقوله في سياق الحديث عن ترك الدنيا والرحيل عنها إلىٰ الدار الآخرة: "فاعلموا_ وأنتم تعلمون_ بأنَّكم تاركوها، وظاعنون عنها"، فيؤكد علىٰ حتمية الرحيل والترك، لينفِّرهم من الاغترار والانخداع بمباهج الدنيا وزينتها؛ لأنهم حتمًا سيفارقونها ويرحلون عنها إلىٰ الدار الآخرة الباقية، فيشعرهم بالقلق تجاه الدنيا، مما يحملهم علىٰ عدم الاطمئنان إليها والبحث عن الأمان في العمل لما بعد الموت.

ثم يأتي بمجموعة من البراهين التي تفصح عن مباهجها الخادعة، وزينتها الزائلة في قوله: "حُفَّت بالشهوات، وتحبَّبت بالعاجلة، وَرَاقَتْ بالقليل، وتَحَلَّت بالآمال، وتزيَّنتْ بالغُرور، لا تدوم حَبْرَتُها ولا تُؤمن فَجْعَتُها، غَرَّارةٌ ضرارَّة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكَّالة غوَّالة"، وهي جمل تقريرية، تهدف إلىٰ إقناع المخاطبين بحقيقة زوال الدنيا وبطلان متاعها، وهذا النوع من التعبير يسهم بقدر كبير في إيصال المعنىٰ بشكلٍ مؤثرٍ في نفس المخاطب؛ فكأن المتكلم يخبر المخاطبين بأمور حقيقيةٍ مسلَّمٍ بها يدركونها تمامًا، بهدف تذكيرهم بها فقط، وينبغي أن تكون الجمل التقريرية موجزة وواضحة، وقد تحقق ذلك في كلامه عليه السلام.

ومن التقرير أيضًا قوله في سياق الحديث عن تقلُّب أحوال الدنيا وتلاعبها بأصحابها: "سلطانها دُولٌ، وعيشها رَنِقٌ، وعَذبها أجاج، وحلوها صَبِرٌ، وغذاؤها سِمامٌ، وأسبابها رِمامٌ، حيُّها بعرَضِ موتٍ، وصحيحها بعَرض سُقم، مُلكها مسلوبٌ،

وعزيزها مغلوبٌ، وموفورها منكوب، وجارها محروب"، فالمقام مقام تحذير وتهويل، وهذا الأسلوب التقريري تكمن حجيته في إفادته التحذير، فنبه به علىٰ عدم الاطمئنان إليها أو الإيمان بها.

أسلوب النفي:

يتابع الإمام تأكيده علىٰ عدم الاغترار بالدنيا مستعينًا في إثبات حجته وتعزيزها بأسلوب النفي باعتباره أسلوبًا قويًّا وفعَّالًا للتأكيد علىٰ بطلان متاعها ومباهجها، فهي "لا تدوم حبرتُها، ولا تؤمن فجعتُها" فمن خلال النفي ينبِّه المخاطبين إلىٰ مخاطر الدنيا، مما يرسِّخ فكرة زوالها وعدم ديمومة متعها، فالتعبير بالنفي كان أداة بلاغية قوية تُؤكِّد معنىٰ تقلّب الدنيا وفجاءة نقمتها في ذهن السامع، ولا شك أن استخدام أسلوب النفي هنا يجعل المخاطب يركِّز علىٰ الفكرة التي يريد الخطيب إيصالها، إذ هو أسلوب قوي يفيد نفي صفة معينة، أو حقيقة معينة، بهدف التأكيد علىٰ نقيضها، وهذا بدوره أدعىٰ لإقناع المخاطب بعدم الاغترار بالدنيا والتعلق بها.

وفي سياق حديثه ﷺ عن مصير السابقين وما آلوا إليه، نجده يستخدم **أسلوب النفي** في أكثر من موضع، يوضح فيه أن الدنيا لم تدفع عنهم ما أحلَّ بهم، فقد تركوها وظعنوا عنها فـ "حُمِلوا إلىٰ قبورهم فلا يُدعون ركبانا، وأُنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا... فهم جيرة لا يجيبون داعيًا، ولا يمنعون ضيمًا، ولا يبالون مندبة... متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون" فيتحدث عن أقوام سابقين كانوا أطول أعمارًا، وأشدَّ قوة، يتمتعون بالثروة والسلطان، آثروا الدنيا وتعبَّدوا لها، ثم رحلوا عنها دون منفعة من قوة أو مال، فاستخدم الإمام حججا قائمة علىٰ البراهين القاطعة، فيذكر واقعًا لا يمكن للمخاطب إنكاره، وهو عدم قدرة الموتىٰ علىٰ فعل أي شيء، وعدم قدرتهم علىٰ التفاعل والتواصل مع عالم الأحياء، فهو فيضع حال الأموات أمام

المخاطبين لينبههم إلىٰ حقيقة الموت والاستعداد له، ولا شك أن هذه العبارات تترك أثرًا نفسيًّا عميقًا علىٰ السامعين يشعرهم بانعدام الأمان والاطمئنان تجاه الدنيا مما يدعوهم إلىٰ التفكر في الدنيا والعمل لما بعد الموت.

إن أسلوب النفي أتىٰ ليؤكد حقيقة أن الدنيا لم تقف عند أحد، ولم تقف بجانب أحد، وقد طوىٰ وراءه دروسًا عميقةً في زوال الدنيا وبطلان متعها، فشكَّل صورة قوية مؤثرة في إظهار حقيقة الدنيا عن طريق التأثير النفسي في المخاطبين، مما يدعوهم إلىٰ التواضع والتفكير في معنىٰ الدنيا، ثم الإقرار بزوالها وعدم الاغترار بها.

إن تكرار النفي الذي عرضه الإمام في صورة دقيقة منظمة يؤثر دون شك في نفسية السامع، فهو ينبيء عن شدة خوفه عليهم من الانغماس في شهوات الدنيا ونسيان الموت، فأكد تصويره في صورٍ متنوعة مشعرة بالخوف ليعملوا له ويستعدوا للقائه.

إذن، أسلوب النفي قد أسهم بشكل واضح في تحقيق الهدف المرجو من الخطبة، حيث إقناع السامعين بالمعنىٰ المراد وتحققه في أذهانهم.

صيغة المبالغة:

استخدم الإمام علي في خطبته العديد من صيغ المبالغة التي أسهمت بشكل كبير في التأكيد علىٰ حقيقة الدنيا، من ذلك قوله: "غرَّارة، ضرَّارة، أكَّالة، غوَّالة، سلطانها دُوَلٌ، وعيْشُها رَنِقٌ" فوصفها بمجموعة من الصفات السلبية مستخدمًا صيغ المبالغة الدالة في أصل وضعها علىٰ تأكيد المعنىٰ وتكثيره، وإظهار قوته، والمبالغة فيه، فهي كثيرًا ما تغرُّ بأصحابها أي تغويهم وتستميلهم بمفاتنها ثم تُعرِّضهم للهلاك، وهي ضرّارة كثيرة الأذىٰ، تُلحِق بهم الخسائر والشدائد والضيق، وهي أكَّالة غوَّالة، أي قتَّالة مُهلكة تغتال أهلها وتهلكهم، سلطانها كثير التقلب لا يدوم لأحد.

إن التعبير بصيغة المبالغة يغرس في نفوس المخاطبين شعور الخوف والتنفير والحذر من الدنيا؛ إذ يعكس لديهم انطباعًا قويًّا يعادل قوة اللفظ حول حقيقة غدرها.

وإذا كانت صيغ المبالغة تعمل علىٰ تضخيم المعنىٰ، وإظهار حجم الشيء في ذهن السامع، فإنها تعكس أيضًا حجم الخسارة والضياع الذي يلقاه السامع حين ينشغل بالدنيا ويؤثرها علىٰ الآخرة، كما أنها تقرِّب المعنىٰ في ذهن المخاطب فتجعله مدركًا لحجم الخطر الذي يواجهه، وهي بهذا المعنىٰ عامل مهم وأداة قوية في الإقناع، فتجعل السامع يقبل الحجة ويقتنع بها تماما.

ولا شك أن أسلوب المبالغة الذي آثره الإمام في خطبته قد أثر في نفوس المستمعين؛ لما لتلك الصيغ من قوة تجعل الخطبة أكثر جاذبية وأكثر إقناعًا.

أسلوب القصر:

كان لأسلوب القصر حضور طاغٍ في الخطبة، والقصر مبالغة في التوكيد، من ذلك قوله ﷺ: "لم يكن امرؤٌ منها في حَبْرَةٍ إلا أَعْقَبَتْهُ بَعدها عَبْرَة، ولم يلقَ من سرَّائها بطنًا، إلا مَنَحَتْهُ من ضَرَّائها ظَهرًا، ولم تَطُلَّه فيها دِيمَةُ رخاءٍ، إلا هَتَنَتْ عليه مُزْنةُ بلاء...لا ينال امرؤٌ من غَضَارتِها رَغَبًا، إلا أَرْهَقَتْهُ من نوائبها تعبًا، ولا يُمسي منها في جناحِ أَمْنٍ، إلا أصبح علىٰ قَوادِمِ خَوفٍ".

أحسن الإمام توظيف أسلوب القصر في توجيه المخاطبين وإقناعهم بما يترتب علىٰ تعلقهم بالدنيا، والمعنىٰ هنا قد استدعىٰ التعبير بأسلوب القصر؛ لأنه يتحدث عن حال الدنيا وما تفعله بأصحابها، فأراد أن يذكر الحالين معًا الإيجابي والسلبي، ليبرز تلاعبها بأهلها وغدرها بهم، فأتىٰ بما يؤكِّد لهم أن كل حَبْرة أي سرور وفرح لا بد أن يعقبه حزن ودموع، وأن الرخاء والنعيم لا بد أن يعقبه بلاء وشقاء، فكان الطريق الأخصر لإبراز هذه الصور هو طريق النفي والاستثناء؛ ليؤكد من خلاله للسامعين

أنهم لم يجدوا من الدنيا إلا ما يرهقهم ويضرهم، فينفي دوام كل ما تظهره الدنيا من أمور تسرّهم، ويبين أنها صور زائفة مؤقتة لا تدوم بحال، فلم يرَ المرؤ منها خيرًا إلا وأعقبه شرًّا، فالنعمة في الحياة الدنيا مؤقتة وليست دائمة.

وطريق النفي والاستثناء من شأنه أن يخرج الكلام إلىٰ الحجاجية؛ فهو يحدِّد النتيجة للمخاطب تحديدًا دقيقًا، فينصرف إليها بعينها، وبهذا تظهر قيمة أسلوب القصر في الإقناع والتأثير، إذ هو حصر بالنفي والإثبات، يزيل الإنكار ويحمل المخاطب علىٰ التسليم والتصديق لصحة ما يقال، وقد تحدَّث عنه الإمام عبد القاهر قائلًا: "وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو (ما هذا إلا كذا)، و (إن هو إلا كذا)، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشكُّ فيه، فإذا قلت: (ما هو إلا مصيب) أو (ما هو إلا مخطيء)، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر علىٰ ما قلت، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت: (ما هو إلا زيد)، لم تقله إلا وصاحبك يتوهَّم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجدُّ في الإنكار أن يكون زيدًا)"(١)

وعليه، فالقصر قد أضفىٰ علىٰ الخطبة عمقًا حجاجيًّا يمكِّن المتكلم من مواجهة المخاطبين لإيصال رسالته وتمكينها من النفوس، وهو إذ يركِّز علىٰ فكرةٍ واحدة مع تعدُّد عباراته، فيعمل علىٰ إيصال المعنىٰ بوضوح ويُسر، كما أن القصر يقدِّم المعنىٰ واضحًا بشكلٍ لا يقبل الشكَّ أو الإنكار فيجعل المخاطب يقرّ بما قصده المتكلم، وذلك من خلال عرض النتائج المترتبة علىٰ التعلق بالدنيا، فيعرض أمامهم أمثلةً حيَّة يرونها بأعينهم ويعيشون فيها؛ لإقناعهم بأن ما تُظهره الدنيا لهم من سرورٍ إنما هو من قبيل الزيف والخداع.

(١) دلائل الإعجاز ص٣٣٢، الإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، ط٣، ١٩٩٢م.

أسلوب الشرط:

تعدُّ خطبة الإمام عليّ في ذمِّ الدُّنيا والتحذير منها توجيهًا نحو الخير وتنفيرًا من الشرِّ، وحتىٰ يصل إلىٰ قلوب السامعين وعقولهم لحصول الإقناع والتأثير، يستخدم أسلوب النصح والإرشاد؛ لتهيئة السامعين ودفعهم إلىٰ التفكير في أمور دينهم، من ذلك قوله: "لا خير في شيءٍ من أزوادها إلا التقوىٰ"، "من أقلَّ منها استكثر ممَّا يُؤَمِّنُهُ، ومن استكثر منها استكثر ممَّا يوبِقُهُ، وزال عمَّا قليل".

وكان من أبرز الأدوات الحجاجية التي استخدمها الإمام في ذلك، وكان لها أثرٌ كبير في نفوس السامعين أسلوب الشرط فهو يرتب الجزاء علىٰ الشرط، مما يلفت انتباه السامعين، ويحفِّزهم علىٰ التركيز والتعمق في الأسباب والنتائج، وقد صاغ الإمام تحذيره من الانغماس في ملذات الدنيا علىٰ طريقة الشرط؛ ليبين ما يترتب علىٰ ذلك من الهلاك، فمن اتخذها وسيلة ولم يتعلق بمفاتنها ومباهجها فقد أَمَّن نفسه من غدرها وخداعها، يقول في ذلك: "مَن أقلَّ منها استكثر مما يؤمِّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وزال عما قليل" يعني أن مَن يقلِّل من شأن الدنيا ولم يتمسَّك بها، بل يتخذها وسيلة للوصول إلىٰ الحياة الدائمة، يحصل علىٰ خيري الدنيا والآخرة، ويؤمِّن نفسه من غدرها وفتنتها، أما من يكثر من التعمق في شهواتها ومغرياتها، ويجعلها غايته فيعرِّض نفسه لمصائبها ومخاوفها، فالشرط بيَّن الأسباب وما يترتب عليها من نتائج، مما يدعو المستمعين إلىٰ التفكير في عواقب الأمور بصورة واضحة، فكان الشرط عاملًا قويًّا في إقناع السامعين بالنتائج دون الشعور بفرضها عليهم، كما أنه يخلق تفاعلًا فكريًّا في نفوسهم تجاه تحديد رغبتهم فيما يصلحهم.

أسلوب الاستفهام:

من أكثر الأساليب اللافتة للانتباه أسلوب الاستفهام وهو من الأساليب التي تعكس انفعالات المتكلم، وتحرِّك انتباه المخاطب، وتدفعه إلىٰ التفاعل والتجاوب مع المتكلم، وهو بهذه الخاصية يمثِّل في الخطبة أداة حجاجية قوية للتأثير في المخاطبين؛ حيث عرض الإمام حجَّته علىٰ طريقة الاستفهام، لحصول هذه الحالة التفاعلية مع المخاطبين، فيلتقي المخاطب والمتكلم عند نقطة واحدة من خلال الاستفهام، وهي الإقرار بالجواب، من ذلك قوله: "ألستم في مساكن من كان قبلكم أطولَ أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، وأبعدَ آمالًا؟" وقد أحسن سيدنا عليّ _رضي الله عنه_ توظيف أسلوب الاستفهام حجاجيًا؛ فهو يحتج بالواقع الذي يواجهه المخاطبون في صورة استفهامية، ومعنىٰ الاستفهام هنا الإقرار، فيؤكد علىٰ حقيقة تاريخية، يشير فيها إلىٰ أن السابقين الذين عمَّروا الأرض وعاشوا فيها أمدًا بعيدًا، وبنوا حضاراتٍ عظيمة، ومع هذا انتهوا وبقيت آثارهم، فكأن الإمام يجعلهم يسألون أنفسهم عن الهدف من التعلق بالدنيا، إذا كان مصيرهم حتمًا هو مصير مَن سبقهم، إذن من خلال الاستفهام استطاع الإمام أن يبثَّ الخوف والقلق في نفوس المخاطبين تجاه مصيرهم، ومن ثم قناعتهم بعدم التعلق بالدنيا وإيثارها.

وطبعي أن يكون لمثل هذه الأساليب أثر كبير في التأثير علىٰ المخاطبين، فهي أقوىٰ في تحريك نفوسهم وتنبيههم، وكأن المتكلم حين يُلقي المعنىٰ علىٰ طريقة الاستفهام يحمل المخاطب علىٰ التصديق والاطمئنان؛ لما يدل عليه الاستفهام من وثوق المتكلم من حجته وإيمانه بها.

ثم ينتقل من الإقرار إلىٰ تفنيد الحجج والبراهين علىٰ أن الدنيا لم تحسن إلىٰ أحد، عن طريق الاستفهام المراد به النفي في قوله: "فهل بلغكم أن الدنيا سَخَتْ لهم

نفسًا بفديةٍ، أو أعانتهم بمعونةٍ، أو أَحسَنتْ لهم صحبةً... وهل زوَّدَتْهم إلا السَّغَب، أو أحلَّتهم إلا الضَّنك، أو نوَّرت لهم إلا الظُّلمة، أو أعْقَبَتْهم إلا النَّدامة؟"

إن الاستفهام هنا يؤكد نفي إسعاد الدنيا لأهلها أو إعانتهم أو الإحسان إليهم، وأنهم لم يجدوا منها إلا الجوع والضيق والشدة والندامة، وقد أضفىٰ الاستفهام علىٰ المعنىٰ طابعًا قاطعًا دالًا علىٰ الموقف السلبي للدنيا تجاه أهلها، فكان لأسلوب الاستفهام قوة تأثيرية في إقناع المخاطبين تدفعهم إلىٰ الوقوف علىٰ حال الدنيا معهم.

ثم ينكر عليهم الإمام بعد هذا كله اهتمامهم بهذه الدنيا الزائلة وتعلقهم بها بعد أن رأوا خداعها ومراوغتها لهم بقوله: "أفهذه تؤثرون! أم إليها تطمئنون! أم عليها تحرصون؟" فهو إنكار توبيخي، يقصد به تنفيرهم من إيثار الدنيا، والاطمئنان إليها، والحرص عليها بعد ما رأوا ما فعلته بالأمم قبلهم، والمعنىٰ: لا ينبغي أن يكون منكم هذا الإيثار وهذه الطمأنينة، وهذا الحرص.

نلمح أن الاستفهام قد خلق حالة من انتظار السامعين لتوجيههم نحو ما يجب عليهم تجاه الدنيا، فإذا كان لا ينبغي منهم مثل هذه الأمور من الإيثار والاطمئنان والحرص، فما الواجب عليهم حينئذ؟ فيوجههم سيدنا عليّ إلىٰ أنه ينبغي عليهم سوء الظن بها، وأن يكونوا علىٰ حذر وخوف منها دائما، لأنه لا بد من مغادرتها والرحيل عنها، يقول: "فبئست الدار لمن لم يتَّهمها، ولم يكن فيها علىٰ وجلٍ منها، فاعلموا _وأنتم تعلمون_ بأنكم تاركوها، وظاعنون عنها"

وعليه، فالاستفهام هنا هو الحجة بعينها، وهو يحمل معنىٰ العظة، كما يحمل معنىٰ التهويل والتخويف، فكان لهذه المعاني كلها أثرٌ عميق في نفس السامع وقناعته بها.

أسلوب الأمر:

يدل فعل الأمر في ذاته علىٰ الوجوب والإلزام والتكليف، فهو طلب حصول الفعل علىٰ جهة الاستعلاء، وهو يعدُّ من الأدوات الحجاجية التي تؤثِّر في نفس السامع وتدفعه إلىٰ الاقتناع؛ إذ يعمل علىٰ توجيه المخاطب للقيام بفعل شيءٍ معيَّن يُفضي به في النهاية إلىٰ الاقتناع، وقد استخدم الإمام أسلوب الأمر لبناء حجة قويَّة بُنيت علىٰ حقائق حتمية مما يزيد من قوة الإقناع والتأثير، فاستخدم أسلوبًا حجاجيًا بارعًا في تقديم نصائحه وتوجيهاته، فقدَّم أدلة وبراهين تدعم أقواله من خلال تذكيرهم بالموت والحال الذي يصير إليه الموتىٰ، ليؤكد لهم خطورة التعلق بالدنيا، من ذلك قوله: "فاعلموا_ وأنتم تعلمون_ بأنَّكم تاركوها، وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةٗۖ ﴾ فصلت:/ ١٥ حُمِلوا إلىٰ قبورهم، فلا يُدْعون رُكبانًا، وأُنزلوا الأجداث فلا يُدعَوْن ضيفانًا، وجُعِل لهم من الصَّفيح أجنانٌ، ومن التراب أكفانٌ، ومن الرُّفات جيرانٌ"

فهو يهدف إلىٰ توجيه السامعين نحو الخير والاستعداد لما بعد الموت، والأمر هنا يحمل معنىٰ النُّصح والإرشاد لا الإلزام والتكليف، لغرض التحذير من التعلق بالدنيا والاطمئنان إليها، والتعبير بالأمر قد أسهم في تحقيق الهدف من الخطبة، كما أبان عن رغبة المتكلم في امتثال السامعين لما أُمروا به وحرصه علىٰ منفعتهم، مما يدفعهم إلىٰ الإقتناع والتصديق.

التكرير:

الكرّ: الرجوع، وكرَّر الشَّيء: أعاده مرة بعد أخرىٰ[1]،"وحقيقة التكرار أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه، سواء كان اللفظ متفقَ المعنىٰ، أو مختلفًا، أو يأتي

(١) لسان العرب مادة (كرّ)

بمعنىٰ يعيده"[١] وعدَّ الباقلاني التكرار نوعًا من البديع، فقال: "ومن البديع عندهم التكرار"[٢]

ومن التكرير قول الإمام علي: "غرارة ضرارة... غرارة غرورٌ ما فيها" كرر كلمة (غرارة) ليجذب انتباه السامعين إلىٰ اتصاف الدنيا بهذه الصفة السلبية؛ ليؤكد علىٰ خطورتها وخداعها وفتنتها بأهلها، فلا ينخدع بها أصحابها، وفي قوله: "فانية فانٍ من عليها" كرر لفظ الفناء ليؤكد علىٰ زوال الدنيا بمباهجها ومفاتنها، وزوال مَن عليها، فهذا التكرار يهدف إلىٰ ترسيخ معنىٰ أن الدنيا ليست إلا دار ممرّ، وأن كل ما فيها مصيره إلىٰ زوال.

وقوله: "من أقلَّ منها استكثر مما يؤَمِّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه" التكرار هنا يبرز التناقض في موقف الإنسان تجاه الدنيا، فإذا اكتفىٰ منها بالقليل أَمَّن نفسه من غدرها وتلاعبها، وإذا ضعف أمام مفاتنها وشهواتها فقد جلب لنفسه الضر والهلكة، إذن التكرار يهدف إلىٰ التحذير من التعلق الشديد بالدنيا، ويدعو إلىٰ الاعتدال والتوازن في أمورها، ومن ثَم التوجُّه إلىٰ العمل بما يبقىٰ ويؤمِّن الإنسان من الهلاك.

كما لجأ الإمام إلىٰ تكرار المعاني، بهدف تعميقها وترسيخها في الذهن، فنراه يصف الدنيا بأوصاف متعددة تشير إلىٰ زوالها بهدف التأكيد علىٰ بطلانها في جميع الأحوال.

---

(١) الفوائد المشوق إلىٰ علوم القرآن وعلم البيان، ص١١١، ابن قيم الجوزية، مكتبة المتنبي، بدون تاريخ.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٠٦، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٥، دار المعارف، د.ت

هذا التكرار للتعبير عن فكرة واحدة يزيد من قوة تأثيرها في أذهان السامعين، من ذلك قوله: "أكالة غوالة... لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرَّائها بطنا، إلا منحته من ضرَّائها ظهرا، ولم تطلَّه فيها ديمة رخاء، إلا هتنت عليه مزنة بلاء...لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا، إلا أرهقته من نوائبها تعبا، ولا يمسي منها في جناح أمن، إلا أصبح علىٰ قوادم خوف"، هذه المعاني جميعها تشير إلىٰ معنىٰ واحدٍ وهو الحذر من تقلُّبات الدنيا وغدرها بأصحابها، ولا شك أن هذا التكرار يعمِّق معنىٰ التحذير، ويحمل المتلقي علىٰ التجاوب مع المتكلم، والتأثر برسالته من خلال إلحاحه علىٰ إيصالها له، فيترتب علىٰ هذا التكرار الإقتناع بصدق الرسالة وقبولها، يقول د/ عبد الله صولة: "ومن طرائق عرض الخطاب عرضًا حجاجيًّا اعتماد التكرار لإبراز شدة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها"(١)

ونلحظ أن أسلوب التكرير أتىٰ بكثرة في سياق التخويف والتهويل من شأن الدنيا، فجاءت الدنيا في خطبته رضي الله عنه بشكلٍ مخيفٍ مخادع، وهذا دون شكٍّ من الأساليب القوية التي تُستخدم لإثارة السَّامعين وإقناعهم بخطورة التعلُّق بالدنيا وزوال متعها، لذا نراه يبرهن علىٰ تحذيره من الدنيا بأمثلة ملموسة تؤكد حقيقة خداعها وتلوُّنها، فهي (غرّارة ضرَّارة، أكَّالة غوّالة... سلطانها دُولٌ وعيشها رَنِقٌ، وعذبها أجاج، وحلوها صبِرٌ، وغذاؤها سمام، وأسبابها رِمامٌ، ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها منكوب)، كما نرىٰ تكراره لبعض العبارات والكلمات التي تحمل معنىٰ التخويف والتهويل كما في قوله: (غرارة غرور ما فيها، فانية فانٍ من

(١) في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، أ.د/ عبد الله صولة ص ٣٥

عليها، مَن أقلَّ منها استكثر مما يؤمِّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه) مما زاد من تأثيرها علىٰ نفوس السامعين.

ومما يزيد من التخويف والتهويل من شأن الدنيا طريقة الخطيب في طرح الأسئلة علىٰ المخاطبين التي من شأنها إثارة الخوف في نفوسهم والتفكير في مصيرهم، من ذلك قوله: "ألستم في مساكن مَن كان قبلكم أطولَ أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، وأبعدَ آمالًا، وأَعَدَّ عديدًا، وأكثفَ جنودًا... فهل بلغكم أن الدنيا سَخَتْ لهم نفسًا بفديةٍ، أو أعانتهم بمعونةٍ، أو أحسنت لهم صحبة... أفهذه تؤثرون أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون؟!"

ثم إن الخطيب استخدم طريقة التخويف بحكمةٍ بالغة؛ حتىٰ يؤتي ثماره ولا يكون التأثير علىٰ المستمعين سلبيًا، فأكد علىٰ أن الدنيا فانية زائلة بكل مافيها، مرشِّحًا ذلك بذكر أحوال الأمم السابقة الذين هُلكوا بسبب تعبُّدهم للدنيا وإيثارهم لها، فكان من حكمته _رضي الله عنه_ أن ساق أمثلة حيَّة يرونها بأعينهم، تدعوهم إلىٰ التفكُّر والتدبُّر فيما يصيرون إليه، مثلهم في ذلك مثل مَن كانوا قبلهم.

وأسلوب التخويف قصده الخطيب لِما له من تأثيرٍ قويٍّ في نفس السَّامع وعقله، فيدفعه إلىٰ الخوف من الدنيا ومخاطرها؛ ليُحقِّقَ الهدف من الترهيب والتخويف، حيث إصلاح النفس وتوجيهها نحو الخير.

الاعتراض:

الاعتراض هو "أن يُؤتىٰ في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنىً بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب لنكتة"(١)

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٣/ ٢٠ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، الناشر: دار إحياء العلوم_ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.

هذا الغرض الذي جاء من أجله الجملة الاعتراضية هو الذي يحقق الإقناع وينبه السامعين إلىٰ معنىً مهم، ينبغي عليهم إدراكه والتنبه إليه.

قوله: "فاعلموا _وأنتم تعلمون_ بأنكم تاركوها، وظاعنون عنها، واتَّعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، حُملوا إلىٰ قبورهم..." إن جملة الاعتراض (وأنتم تعلمون)، تعد أداة بلاغية قوية، وظَّفها الإمام عليّ بشكلٍ دقيقٍ للتأكيد علىٰ معنىً الرحيل عن الدنيا بهدف توجيههم إلىٰ العمل النافع الذي يؤمنهم في الحياة الدَّائمة، فأكد للمخاطبين من خلال جملة الاعتراض علمهم جيِّدًا بعدم خلودهم في الدنيا، فحقيقة الموت معلومة لدىٰ الجميع، ولا يحتاج أحد إلىٰ إثباتها، وإنما الحاجة فقط إلىٰ التنبيه والتذكير بأمر الموت والموتىٰ، وهذا التأكيد يزيد من قوة الحجة، ويدفعهم إلىٰ التفكير في أحوالهم ومواقفهم تجاه الموت والحياة، كما أن هذه الجملة تحمل في طيها توبيخًا لهم؛ فهي تؤكِّد علمهم بالموت وانقضاء الأجل، ومع هذا يطمئنون إلىٰ الدنيا وينهمكون في ملذاتها، بدليل قوله ﷺ قبلها: (أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون؟)، إذن الجملة الاعتراضية كانت عاملًا مهمًّا في عملية الإقناع، من خلال التأكيد علىٰ حقيقةٍ يدركها السامعون ويعلمونها بأنفسهم.

ثم إن جملة (وأنتم تعلمون) أدلُّ علىٰ يقين المتكلم بحال المخاطبين، وإذا كان المخاطب لا يحتاج إلىٰ دليلٍ لإثبات الحجة لعلمه ويقينه بها، فإن ذلك أدعىٰ إلىٰ إقناعه بالحجة وإيمانه بها.

الروابط الحجاجية:

اعتمد الإمام عليّ في خطبته علىٰ ترابط الحجج وانسجامها وتماسكها بواسطة الروابط اللغوية، وهي تعدُّ من أهم العناصر الحجاجية في الخطبة؛ حيث يتم بواسطتها

إيجاد العلاقات بين الحجج، والربط بين المعاني، ومن ثَم الوصول إلىٰ الهدف المرجو من الخطبة، وهو الإقناع والتأثير.

الربط بـ (الواو)

نلحظ في الخطبة حضورًا طاغيًا لأداة الربط (الواو)، التي تفيد مطلق الجمع، وهي في الخطبة تعمل علىٰ ترتيب الحجج وتنظيمها، وقد دلَّت بتكرارها علىٰ كثرة الحجج وتعدُّدها مما يضاعف من قوة تأثيرها في نفوس المخاطبين، من ذلك قوله: "حُفَّتْ بالشهوات، وتَحَبَّبَتْ بالعاجلة، ورَاقَتْ بالقليل، وتَحَلَّت بالآمال، وتزيَّنت بالغُرور... سلطانها دُوَلٌ، وعَيشُها رَنِقٌ، وعَذْبُها أُجاجٌ، وحُلوها صَبِرٌ، وغِذاؤها سِمام، وأسبابها رِمامٌ، مُلكها مَسلوبٌ، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب"

فالواو كان لها دور كبير في ربط الحجج وتماسكها وانسجامها، وتقوية كل حجة بأختها، كما عملت علىٰ تسلسل الحجج وترتيبها بقصد استمالة المخاطب واستدراجه، وبهذا تكون (الواو) أسهمت في إيصال الفكرة إلىٰ المخاطب وإقناعه بها، ففي سياق الحديث عن وصف الدنيا يعمد الإمام إلىٰ ربط صورها بالواو خاصة، وكل صورة من هذه الصور تمثِّل بذاتها حجة مستقلة، لكن الربط بين جميعها عمل علىٰ تكاتفها وتعاضدها، ومن ثَم الوصول إلىٰ نتيجة حتمية واحدة وهو (صورة الدنيا الزائفة)، فالرابط الحجاجي (الواو) هو الذي قام بتقوية هذه الحجج باعتباره وسيلة مهمة جدًا في عملية الترابط والانسجام بينها.

وإذا كانت (الواو) قد حققت علاقة الترابط بين الحجج السابقة في سياق الحديث عن صورة الدنيا، فإنها أيضًا قد أدت دورها في تأكيد الحجج وترابطها في سياق الحديث عن غدرها وفتنتها بأصحابها، فيؤكد معنىٰ كونها (غرَّارة ضرَّارة) عن

طريق الربط بالواو في قوله: "لم يكن امرؤٌ منها في حَبْرَةٍ إلا أَعْقَبَتْهُ بَعدها عَبْرَة، ولم يلقَ من سرَّائها بطنًا، إلا مَنَحَتْهُ من ضَرَّائها ظَهرًا، ولم تَطُلَّه فيها دِيمَةُ رخاءٍ، إلا هَتَنَتْ عليه مُزْنةُ بلاء...لاينال امرؤٌ من غَضَارتِها رَغَبًا إلا أَرْهَقَتْهُ من نوائبها تَعبًا، ولا يُمسي منها في جَنَاحِ أَمْنٍ، إلا أَصبح علىٰ قَوادِمِ خوفٍ... كم من واثقٍ بها قد فَجَعتْه، وذي طمأنينة قد صَرَعَتْه، وذي أُبَّهةٍ قد جعلته حقيرًا، وذي نَخْوَةٍ قد رَدَّته ذَليلًا"

فربطت الواو بين الجانب الإيجابيّ للدنيا والجانب السلبيّ منها، لتكشف عن سعادتها المؤقَّتة غير الدائمة، فلا يمكن أن يعيش الإنسان في حالٍ منهما دون الآخر، ولا شك أن هذا الربط يعزز من الحجج لإقناع المخاطب بحقيقة تقلبات الدنيا وتبدل أحوالها وما تصنعه بأهلها من الضرر والهلاك.

ومن أمثلة الربط بالواو أيضًا، وترتيب الحُجَج واتِّساقها، ما جاء في التأكيد علىٰ معنىٰ الوحدة والرَّحيل دون التزوّد من الدنيا بشيء، يقول ﷺ في وصف حال السابقين الذين تركوا الدنيا وفارقوها: "حُملوا إلىٰ قبورهم فلا يُدْعَون رُكْبانًا، وأُنْزِلوا الأجْداث فلا يُدعَون ضيفانا، وجُعل لهم من الصَّفيح أَجْنانٌ ومن التّراب أَكنان، ومن الرُّفات جيران، فهم جيرةٌ لا يُجيبون داعيًا، ولا يمنعون ضَيْمًا، ولا يُبَالون مَنْدبَةً، إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحِطوا لم يَقنطوا، جميعٌ وهم آحاد، وجيرةٌ وهم أَبْعَاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون... استَبدلوا بظهر الأرض بطنًا، وبالسَّعة ضيقًا، وبالأهل غُربةً، وبالنور ظُلمة" فكل حجة قد لحقت بالأخرىٰ من خلال الرابط (الواو) لتزيد من قوة التأكيد علىٰ حقيقة الموت ونتائجه المحقّقة، فالواو الحجاجية كانت أداة لرسم صورة واضحة عن مصير الموتىٰ وزوال متع الدنيا وانعدام قيمتها، فكانت سببا في بناء الحجج للوصول إلىٰ هذه النتيجة (فجاءوها كما فارقوها، حفاة عراة).

الربط بـ (أو) و (بل)

اتخذ الإمام من الرابط الحجاجي (أو) وسيلة لربط حججه وتقويتها للتأثير في المخاطبين، مثال ذلك قوله: "فهل بلغكم أن الدنيا سَخَتْ لهم نفسًا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صُحبة... وهل زوَّدتْهم إلا السَّغب، أو أَحَلَّتْهم إلا الضَّنك، أو نوَّرت لهم إلا الظُّلمة، أو أعقبتهم إلا النَّدامة".

وردت هذه الحجج في سياق الحديث عن عدم مساندة الدنيا لأصحابها أو الوقوف بجانبهم في محنتهم، فيُظهِر لهم موقفها مع مَن كانوا قبلهم من الأمم السابقة، ممن كانوا أطول أعمارًا، وأبعد آمالًا، وأكثف جنودًا، مع من تعبَّدوا للدنيا وآثروها، ومع هذا كله لم تدفع عنهم مكروهًا، ولم تقدِّم لهم نفعًا، فربطت (أو) بين الحجج لتدل علىٰ مساواتها في نفي تحقّقها، لتؤكد نتيجة واحدة هي عدم نفع الدنيا لأهلها حتىٰ مع شدة حرصهم عليها وإيثارهم لها.

وحتىٰ يدفع أدنىٰ شكٍّ لدىٰ المخاطبين في حصول النفع منها أو التزود من زادها، نراه يقوي حجته باستخدام الرابط (**بل**) بهدف الوصول إلىٰ النتيجة المرجوة بأخصر طريق وآكده، يقول: (ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، وأبعد آمالًا، وأعدَّ عديدًا، فهل بلغكم أن الدنيا سَخَتْ لهم نفسًا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة، **بل** أرهقتهم بالفوادح، وأوهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنَّوائب، وعفَّرتهم للمناخر، وأعانت عليهم ريب المنون" فربط بين الحجة الأولىٰ وهي نفي أن تكون الدنيا قد أحسنت لهم صحبة، أو أعانتهم بمعونة، وبين الحجة الثانية وهي أنها أرهقتهم بالقوارع وضعضعتهم بالنوائب، فالرابط (بل) أكَّد إلحاق الضرر بهم، وإحاطتهم بالمصائب، وإذلالهم، فكان عاملًا مهمًّا في تأكيد الحجج وترابطها وتقويتها وتمكينها من نفس السامع.

المبحث الثالث
حجية الصور البيانية

التشبيه:

التشبيه هو: مشاركة أمرٍ لآخر في معنىٰ بأداة، لذا فهو يمثل عنصرًا رئيسًا في عملية الإقناع؛ إذ يربط بين المعاني ويؤلِّف بينها، وهو يوضِّح المعنىٰ في صورة محسوسة تمكِّن المتلقي من إدراك المعنىٰ المراد والوقوف علىٰ المقصود منه، ومن الصور التشبيهية ما ورد من تشبيه الحياة الدنيا بالنبات في قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ الكهف: ٤٥

شُبِّهت الدنيا في زخرفها وزينتها التي تسرّ الناظرين، ثم ما يتبع هذه الحالة المبهجة من الفناء والهلاك بصورة النبات الذي يبدأ ضعيفًا ثم ينمو ويقوىٰ فتعجب به النفس وتميل إليه، ثم ينتهي ذلك كله بهلاكه وفنائه، حيث يتهشَّم ويتحطَّم فتطيِّره الرياح وكأنه لم يكن.

هذه الصورة التشبيهية اختذلت أطوار الدنيا من القوة والنماء والضعف والهلاك في صورة هذا النبات الذي يبدأ ضعيفًا فيختلط به الماء فينمو ويشتد عوده ويتكاثف، ثم يتلاشىٰ ذلك كله بهلاكه وفنائه.

فكان للتعبير بالصورة التشبيهية دورٌ إقناعيٌّ يؤثر في النفوس ويحثُّها علىٰ إدراك حقيقة قيمة الدنيا، حيث ضعف الدنيا وهشاشتها وقصر عمرها وعدم ديمومتها، وما يترتب علىٰ ذلك من انعدام الأمان لها والاطمئنان إليها، يقول شيخنا الدكتور/ أبو موسىٰ: "إن المشبه وهو حال الدنيا في بهجتها وفنائها وإن كان يتكرر إلا أن الإحساس به ليس بنفس درجة الإحساس بصورة النبات الزاهي الذي يصيبه الذبول؛

لأن ذلك يقع كثيرًا تحت البصر والسمع، ففي كل وقتٍ نرىٰ نباتًا يحيا ونباتًا يموت"(١)

وفي قوله: (عذبها أجاج، وحلوها صبِر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رِمام)، تشبيهات تجمع بين الإيجاز والعمق للتعبير عن حقيقة الدنيا المتناقضة، فقوله: (عذبها أجاج) يصوِّر أن ما يبدو للناس من حلاوة الدنيا وجمالها هو في الحقيقة مرارة وألم يضرّهم كما يضرُّ الماء المالح، كما شبَّه لذَّة الدنيا ومتعتها بالصبر وهو نبات مرٌّ، يقصد بذلك أن لذَّة الدنيا لا يمكن الوصول إليها دون تعب ومشقّة، ومع هذا لا يتنعم بها الإنسان ولا يشعر بحلاوتها.

وقوله: (غذاؤها سِمامٌ) شبه الغذاء بالسم القاتل، ليشير إلىٰ أن ما تقدِّمه الدنيا من خير أو ملذات ما هو إلا سِمام تدمِّر النفس وتستهلكها.

فهذه التشبيهات تؤكد أن الدنيا زائفة ومتغيّرة وأنها مليئة بألوان الشهوات والمغريات التي تخدع الناس وتبعدهم عن الهدف الحقيقي وراء العيش في الدنيا وهو العمل للآخرة.

وقوله: (وأسبابها رِمام): أي حبالها بالية، شبه أسبابها يعني حبال تودها وتقرّبها للناس بالرمام البالية، يشير إلىٰ خطر التعلق بأسباب الدنيا من السلطة والمال وغيرها من مغريات الحياة، لأنها كالحبال البالية التي لا قيمة لها، فهي سرعان ما تتقطَّع وتزول وتنتهي.

(١) الإعجاز البلاغي، أ.د/ محمد أبو موسىٰ، ص ١٢٢ مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ٢٠١٢م

فالتشبيه كان عاملًا مهمًّا في إقناع المخاطبين بحقيقة خداع الدنيا وبطلان متعها والتركيز علىٰ العمل للآخرة، من خلال خلق صورة ذهنية تسهم بشكل كبير في نفس السامع، وتدفعه إلىٰ فهم حقيقة الدنيا لتجنب الوقوع في مفاتنها وأضرارها.

الاستعارة:

استخدم الإمام عليّ في خطبته صورًا استعارية رائعة تفصح عن معانيه بطريقة أكثر قوة ووضوحا، وتمكِّنه من إقناع المخاطبين ببراعة ومهارة دون اللجوء إلىٰ التعبيرات المعقَّدة، فتأتي الصورة لتزيل ما يحدث في النفس من لَبسٍ أو إشكال، شأنها في ذلك شأن التكرار الذي يعود علىٰ النفس بالتأكيد والإقرار، وأول ذلك ما كان من تصوير الدنيا في نضارتها وبهجتها بصورة النبات الأخضر الذي يسرُّ الناظرين ويجذب انتباههم لبهائه ونضرته فيصورها بقوله: "فإنها حلوة خضرة"، يحتجُّ بزوال الدنيا وبطلانها من خلال تشبيهها بالنبات الأخضر في سرعة ذبوله وانتهائه.

واختار أوصافًا تبعث علىٰ البهجة والإعجاب ليعكس صورتها في أعين الناس، فهي في أنظارهم تثير البهجة والسرور.

ثم سرعان ما يشير إلىٰ هذه النظرة الخادعة التي تذوب وتفنىٰ ولا تدوم بحال، فقد "حُفَّت بالشهوات وتحبَّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزيَّنت بالغُرور" فينبِّههم إلىٰ ما تفعله بهم من التودُّد والتقرُّب دون نفع، لمعرفتها بطبيعة النفس الإنسانية التي تميل وتعجب بهذه اللذة العاجلة، فهي تتزين لأهلها بما يرجونه ويأملونه منها بأوهامٍ لا حقيقة لها، ولا نفع من ورائها، فهي "غرَّارة ضرَّارة، أكَّالة غوَّالة" هذا الوصف يستحضر في ذهن السَّامع صورةً واضحةً مؤثِّرة للدنيا، فصوَّرها في صورة شخصٍ ماكرٍ يخدع أصحابه ويفتنهم.

ثم يصوِّرها في صورة حيوان يلتهم فريسته ويغتالها، يشير بذلك إلىٰ أنها تخدعهم وتستهلك أعمارهم وأحلامهم، وتبعدهم عن الصواب، فهذه الصور المجازية آثرها المتكلم بهدف التأثير في نفس المخاطب وتنبيهه إلىٰ طبيعة الدنيا ومخاطرها وأوهامها.

وعليه، فالتعبير بالصورة الاستعارية قد كشف عن حقيقة الدنيا وزينتها الزائلة للمخاطبين في صورة محسوسة جمعت بين الإيجاز والدقة، فتعطي انطباعًا نفسيًّا للمتلقي يثير الخوف من الدنيا وأحوالها ومفاتنها، وتهدف إلىٰ إقناعهم بعدم الاطمئنان إليها والوثوق فيها، مما يدعو السامعين إلىٰ التفكر والتأمل في أحوالها دون تذمُّر واستياء، ولا أدلُّ علىٰ ضعف الدنيا وفنائها من تشبيهها بالنبات في قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ الكهف: ٤٥

إذن، الاستعارة "تعدُّ من الآليات الحجاجية المهمة، التي يمارس المتكلم من خلالها التأثير في المتلقي، من خلال فعاليتها في التأثير في الأذهان والأفهام، وهي نوعٌ خاصٌّ من الاستدلال العقلاني ومن الفضائل المعرفية والإدراكية، ولها وظيفة مركَّبة يرتبط فيها العقل بالإحساس، والفكري بالنفسي، تسعىٰ إلىٰ إعادة النظر في نظام الخطاب، وهي بهذا تسمح في الوقت نفسه بالإحساس والتفكير"[1]

ولبناء صورة متكاملة عن المعنىٰ المراد، نراه مؤكِّدًا علىٰ حقيقة قسوة الدنيا وتلاعبها بأهلها محاولًا التأثير في نفوس السامعين ودفعهم إلىٰ الزُّهد في الدنيا عن

(١) الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته وتطبيقات في خطب ابن نباتة، ص١١٣ د/ باسم خيري خضير، دار صفاء للنشر، عمان، ط١، ٢٠١٩م

طريق تشخيصها في قوله: "فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفسا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة"

فشبهها بشخص يقسو علىٰ أصحابه ولا يعينهم ولا يحسن إليهم، فأعطىٰ بهذه الاستعارات صورة حيَّة تعكس المعاناة التي يواجهها الإنسان في الدنيا، مما أسهم في إثارة مشاعر السامعين وإدراكهم حقيقة قسوتها وعدم رحمتها بهم.

وعليه، فالصورة الاستعارية جعلت المعنىٰ المراد أكثر وضوحا، فنبهت السامعين إلىٰ عدم الانسياق خلف الدنيا وزينتها.

الكناية:

يقول الإمام عبد القاهر: "والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنىٰ من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلىٰ معنىٰ هو تاليه وردْفُه في الوجود، فيوميء به إليه، ويجعله دليلًا عليه، مثال ذلك قولهم: (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة، و (كثير رماد القدر) يعنون كثير القرىٰ، وفي المرأة (نؤوم الضحىٰ) والمراد أنها مُتْرفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله معنىً، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصَّلوا إليه بذكر معنىً آخر من شأنه أن يَرْدَفَه في الوجود، وأن يكون إذا كان"(١)

حفلت خطبة ذم الدنيا بعدد من الكنايات التي أسهمت بدورها في تقوية حجته وإثباتها، من ذلك قوله رضي الله عنه عن إساءتها لهم: "بل أرهقتهم بالفوادح، وأوهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفَّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم"

قوله: (بل أرهقتهم بالفوادح، وأوهقتهم بالقوارع) استخدم الإمام الكناية للتعبير عن إحاطتهم بالمحن والمصائب، يشير بذلك إلىٰ كثرة الشدائد التي يتعرَّض لها

(١) دلائل الإعجاز ص٦٦، الإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، ط٣، ١٩٩٢م.

الناس في الدنيا، وقوله: (وعفَّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم)، أي ألصقت أنوفهم بالتراب، ووطئتهم بالأقدام، كناية عن ذلهم وهوانهم، وسقوطهم وانحطاطهم.

وتتضح حجية الكناية في التأثير علىٰ السامعين وحثّهم علىٰ عدم الانغماس في شهوات الدنيا، فقد خلقت جوًّا نفسيًّا مفعمًا بصور التخويف والتحقير للتأكيد علىٰ قسوة الدنيا، والحث علىٰ الزهد فيها والاهتمام بالآخرة.

هذه الكنايات تعكس عمق المعاني، وتساعد علىٰ إيصال الرسالة بشكلٍ مؤثِّر، فكانت وسيلة لإثبات المعنىٰ وتأكيده بالدليل، وهي حجة قوية تنحو بالمخاطب نحو القبول والتسليم، إذ "أفادت الكناية توكيد المعنىٰ وإثباته؛ لأنها لا ترسل المعنىٰ هكذا غفلًا ساذجًا، وإنما تسوقه إلىٰ النفس مقترنًا بما يفتح باب القبول له والاقتناع به... ففي الكناية الفكرة ليست مدعمة بدليلها، وإنما الفكرة مدمجة في دليلها ملتبسة به لا تنفك عنه، أو قل هي جزء من الدليل، والدليل جزء منها، أو هما شيء واحد"(١)

إذن، الكناية من أهم أدوات الحجاج البلاغية؛ إذ هي دليل علىٰ المعنىٰ الذي أراد المتكلم إيصاله لدىٰ المخاطب وإثباته له، ومن ثم الاقتناع والتصديق.

فهذه الصور تعد أدوات حجاجية قوية، أسهمت في التأثير علىٰ المخاطبين حيث عرضت الحجة بشكل يجعل السامع يفكر فيها بعمق وحكمة، فرسمت صورة حية تعكس أحوال الدنيا وتقلباتها، كما أنها تستهدف جميع البشر وليس فئة معينة في مكان معين أو زمن معين.

(١) التصوير البياني ص٤٨٤، أ.د/ محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، ط٧، ٢٠٠٧م.

المبحث الرابع

حجية الفنون البديعية:

استخدم الإمام في خطبته مجموعة متنوعة من الفنون البديعية التي تهدف إلىٰ إيصال الرسالة بشكلٍ واضحٍ وأكثر تأثيرًا وإقناعًا؛ فهي تضفي علىٰ الكلام إيقاعًا وجاذبية يسهل معها ترسيخه وتأكيده في الذهن، مما يحقق الهدف المرجو من الخطبة، يقول الدكتور أحمد موسىٰ: "هذه الصنعة تخلع علىٰ النَّظم ثوب الرونق، وتكسبه الروعة إذا كانت سهلة سمحة متَّسمة بسيمىٰ الطبع القوي، والفطرة الجيَّاشة التي تحرص علىٰ المعنىٰ فتوفر له كل ما يكسبه القوة والإبانة والوضوح، وتجلب له من الألفاظ ما يلائمه ويتَّفق معه، فالصبغ البديعي بهذا الوصف إن بدا في رسالة كان عينها، أو في خطبة كان وجهها، أو في قصيدة كان بيتها"(١)

وقد جاء البديع في خطبة سيدنا عليّ عفوًا غير متكلَّف، استدعاه المقام، وكان من أبرز هذه الفنون: الطباق، والمقابلة، والسَّجع، والجناس.

أولًا الطباق:

عرّفه أبو هلال العسكري بقوله: "المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدِّه في جزءٍ من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحرّ والبرد"(٢)

إن التَّضاد الذي يقوم عليه الطِّباق يعكس صورة العلاقة بين المفردات، وهذا النمط من التعبير يعزز من قوة المعنىٰ المراد، ويخلق تباينًا في المعاني، مما يحرِّك انتباه

---

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية، ص: ١١٣، د/ أحمد موسىٰ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩م

(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٣٩

السامع ويبعثه علىٰ التدبُّر والتأمل في معنىٰ الدنيا والحياة، والطباق في خطبة ذم الدنيا قد استدعاه المقام وطلبه، وقد استطاع الإمام من خلال هذا الأسلوب أن يعمِّق المعنىٰ في أذهان السامعين بهدف التأثير فيهم وإقناعهم برسالته، فاستخدم الطباق ليبرز البعد بين المعاني فيؤكد به المعنىٰ المراد.

في سياق التحذير من الوقوع في مفاتن الدنيا، نراه يعبِّر بالتضاد ليؤكِّد غدرها بأهلها وتقلب أحوالها التي لا تدوم في قوله: "لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة"، "عذبها أجاج"، "حلوها صبر"، "حيُّها بعرض موت"، "صحيحها بعرض سُقم"، فقد وقع التضاد بين (حبرة، وعبرة)، و(عذب، وأجاج)، و(حي، وموت)، و(صحيح، وسقم)، فهذه الكلمات المتضادة تؤثر بعمق في نفس المخاطب وتدفعه إلىٰ التفكُّر في حدود الدنيا وأحوالها المتناقضة، فالطباق يظهر تباينًا واضحًا بين حالتين مختلفتين لشدِّ الانتباه مما يساعد علىٰ توضيح المعنىٰ، ومن ثَم تعزيز الحجة وجعلها أكثر إقناعًا.

ثانيا المقابلة:

المقابلة: "أن يُؤتَىٰ بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها علىٰ الترتيب"(١)

استخدم الإمام أسلوب المقابلة باعتباره أداة حجاجية قوية للتأثير في نفوس السامعين، فهي تعرض أمامهم كل ما يمكن أن يحتمله الموقف، مما يدعو السامع إلىٰ التمييز بين الضار والنافع، بين الخير والشر، فالمقابلة طريق واضح للوصول إلىٰ ذهن السامع وإيصال المعنىٰ المراد إليه في سهولة ويسر.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٢٢

ومن صور المقابلة في الخطبة قوله ﷺ في عدم الاغترار بإقبال الدنيا: "لم يكن امرؤٌ منها في حَبرةٍ إلا أَعْقَبَته بَعدها عَبْرة، ولم يلقَ من سرَّائها بطنًا، إلا مَنَحته من ضرَّائها ظهرًا، ولم تَطُلَّه فيها دِيمةُ رخاءٍ، إلا هَتَنَتْ عليه مُزْنَةُ بلاء، وحَرِيٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكِّرة، وإن جانبٌ منها اعْذَوْذَبَ واحلَوْلَىٰ، أمرَّ منها جانب فأوبىٰ، لا ينال امرؤٌ من غَضَارتِها رغبًا، إلا أرهقته من نوائبها تعبًا، ولا يمسي منها في جَناحِ أَمْنٍ إلا أصبح علىٰ قَوادِمِ خوف... من أقلَّ منها استكثر مما يؤمِّنه ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه"

فقابل بين قوله: (يلقىٰ، سرائها، بطنا)، و (منحته، ضرائها، ظهرا)، وبين (تطله فيها، ديمة، رخاء)، و (هتنت عليه، مزنة، بلاء)، وبين (أصبحت، منتصرة) و(تمسي، متنكرة)، وبين (اعذوذب، واحلولىٰ)، و(أمرَّ، فأوبىٰ)

فأعطىٰ بهذه المقابلات مقارنة بين أحوال الدنيا، بين النعمة والنقمة، بين السراء والضراء، بين الشدة والرخاء، فزاد المعنىٰ قوةً وتأكيدًا في نفوس المخاطبين، وأعطىٰ به بُعدا واسعًا بين الحالين، فأكَّد مراده حيث التحذير من الاغترار بإقبال الدنيا، والتنبُّه لعدم دوام نعمها؛ لأن البلاء يأتي بعدها، فالإمام يحتجّ بهذه المقابلات إلىٰ تذكير الناس بزوال متع الدنيا، وهذا التعبير يخلق في المتلقي أثرًا نفسيًّا يصور بوضوح كيفية الانتقال من كل حال إلىٰ ما يناقضها، مما يؤكد الحجة ويقويها ويجعلها أكثر إقناعًا وتأثيرًا، فالمقابلة أظهرت عظم غدر الدنيا وخداعها، وقد طلبها المقام واستدعاها فأتت عفو الخاطر دون تكلف.

ومن المقابلة أيضًا ما جاء في سياق الحديث عن السَّابقين الذين تركوا الدنيا وظعنوا عنها، فيأمرهم بأن يتَّعظوا بما آلوا إليه في قوله: "إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا"، "حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم"، "لا

يخشىٰ فجعهم، ولا يرجىٰ دفعهم" فبالمقابلة قد ظهرت أحوالهم فهم لا يبالون بشيء، لا يفرحون إن مطروا ولا يقنطون إن قُحطوا، رحلوا عن الدنيا كما جاءوها، فما سَخَتْ لهم نفسًا بفدية، وما أعانتهم بمعونة، وما أحسنت لهم صحبة، تركوها إلىٰ الحياة الباقية.

إن استخدام أسلوب المقابلة هنا أدعىٰ إلىٰ التأثير والإقناع؛ إذ أفصحت عن أحوال السابقين ومآلهم بأسلوبٍ محكم وجيز، يؤكد علىٰ عدم التعلق بالدنيا وزخارفها الزائلة التي لا تنفعهم بحال بعد أن تستهلك أعمارهم وأوقاتهم.

ثالثا الجناس:

عرَّفه الرماني بقوله: "هو بيانٌ بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة"(١)، والجناس: هو "تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنىٰ"(٢)

وعليه، فالجناس يخلق تفاعلًا بين المتكلم والمخاطب عن طريق الموسيقىٰ التي يُحدثها التماثل بين الكلمات، مما يجذب انتباه السامع للغوص في أعماق المعاني، فإذا تحقَّق هذا كان أجدر بتجاوب العقول واقتناعها، ولذا فهو يعدُّ أداة حجاجية لإقناع المخاطب؛ إذ به يتأكد المعنىٰ ويقوىٰ، وهو يربط الحجج بعضها ببعض لكونه صورة من صور التكرير التي تُعزِّز المعنىٰ.

ومن الجناس قول الإمام علي في شأن الدنيا: "غرَّارة ضرَّارة...غرَّارةٌ غرورٌ مافيها... فانيةٌ فانٍ من عليها...أرهقتهم بالفوادح وأوهقتهم بالقوارع"

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) ص٩٩، دار المعارف، ط٤، بدون تاريخ.

(٢) علم البديع ص٢٧١ د/ بسيوني فيود، مؤسسة المختار للنشر، ط٣، ٢٠١٣م

بين (غرارة، ضرارة)، (أرهقتهم، أوهقتهم) جناس غير تام، وقع الاختلاف فيه في نوع الحروف ويسمَّىٰ جناس لاحق؛ لتباعد مخارج الحروف.

وبين قوله: (غرَّارةٌ، غرور) و (فانية، فانٍ) جناس اشتقاق؛ حيث اجتمعت الكلمتان في أصل الاشتقاق، لذا عدَّه البلاغيون ملحقًا بالجناس.

ووجه الحسن في التعبير بالجناس يكمن فيما يحدثه من موسيقىٰ ناتجة عن تماثل الكلمات مما يطرب السمع فتتجاوب معه القلوب والعقول، وهذا بدوره عامل مهم جدًّا في عملية التأثير والإقناع في نفس السامع؛ إذ هو الأصل في لفت الانتباه الذي يتحقق من خلاله الإقناع.

والجناس في الخطبة قد طلبه المعنىٰ، فصدر عن طبعٍ لا عن تكلُّف، يقول الإمام عبد القاهر: "وعلىٰ الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولًا، ولا سجعًا حسنًا، حتىٰ يكون المعنىٰ هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتىٰ تجده لا تبتغي به بدلًا، ولا تجد عنه حولًا، ومن ههنا كان أحلىٰ تجنيسٍ تسمعه وأعلاه، وأحقُّه بالحُسن وأولاه، ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلىٰ اجتلابه، وتأهُّبٍ لطلبه، أو ما هو _لحسن ملاءمته وإن كان مطلوبًا_ بهذه المنزلة وفي هذه الصورة"[1]

رابعًا السجع:

السجع هو: "تواطؤ الفاصلتين من النثر علىٰ حرف واحد"[2]، وتكمن حجاجية السجع في جذب انتباه المخاطب واستمالته للمعنىٰ المراد، فقد وظَّف الإمام

(١) أسرار البلاغة ص١١، الإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، ط١، ١٩٩١م.

(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ٤/ ٤٤٥- دار إحياء الكتب العربية- مطبعة الحلبي.

حججه ورتَّبها في إيقاعٍ صوتيٍّ من شأنه انسجام المتلقي مع المتكلم ممَّا يدفعه إلىٰ الانسياق وراء الحجج، ومن ثم قبولها والاقتناع بها، ومنه قول سيدنا عليّ في تقلُّبات الدنيا: "(لم يكن امرؤ منها في حَبرةٍ إلا أَعْقبته بعدها عَبْرة(،)ولم يَلْقَ من سرَّائها بطنًا، إلا منحته من ضرَّائها ظهرًا(،)ولم تَطُلَّه فيها دِيمةُ رَخَاءٍ، إلا هَتَنَتْ عليه مُزْنَةُ بلاء(،)وحَرِيٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تُمسي له متنكِّرة(،)وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولىٰ، أمرَّ منها جانب فأوبىٰ)، (لا ينال امرؤ من غضارتها رغبًا، إلا أرهقته من نوائبها تعبًا)، (من أقلَّ منها استكثر مما يؤمِّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه)، (كم من واثقٍ بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته)، (وذي أُبَّهة قد جعلته حقيرًا، وذي نخوة قد جعلته ذليلًا)، (مُلكها مسلوبٌ، وعزيزها مغلوبٌ، وموفورها مَنكوبٌ، وجارها مَحْروبٌ)، (ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعمارًا، وأبقىٰ آثارًا، وأبعد آمالًا، وأعدَّ عديدًا، وأَكْثَف جنودًا)

وقوله فيمن ظعنوا عن الدنيا وتركوها: "إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحِطوا لم يقنطوا"، "حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم"، "لا يُخشىٰ فجعهم، ولا يُرجىٰ دفعهم" وغير ذلك من العبارات التي طوعها الإمام لهذا الانسجام الصوتي، فالخطبة كلها تكاد تكون مسجوعة.

إن المتأمل هذه التراكيب يدرك عذوبتها وسهولتها، وارتباطها التام بالهدف من الخطبة، ومن قبل ذلك ارتباط كلِّ فاصلة بأختها ارتباطًا يؤكد التماسك والانسجام بين الحجج والبراهين التي ساقها الإمام، فالسجع كان وسيلة مهمة جدًّا في عملية الإقناع؛ إذ إن المخاطب يمكن له أن يقف علىٰ فاصلة الجملة الثانية قبل أن يصل إليها المتكلم، وهذا بذاته يمثل أقوىٰ ألوان الإقناع والقبول.

ثم إن السَّجع يستدعي نمطًا من التعبير يتحقق فيه التوازن بين المعاني المطروحة، مما يسهل علىٰ المتلقي الوصول إلىٰ مرحلة الاقتناع والرضا مجرَّدًا عن التذبذب أو الإكراه.

وعليه، فإن ترتيب الحجج تبعا لهذا الانسجام الصوتي، يؤثِّر في النفس تأثيرًا عميقًا، ويتغلغل إلىٰ الأفهام من خلال هذه الموسيقىٰ التي تطرب الأذن، فيتهيأ لها العقل دون فتور أو ملل، فيتمكّن المعنىٰ في النفس فضل تمكُّن.

هذا... وتعد خطبة الإمام عليّ في ذم الدنيا نموذجًا رائعًا للخطابة الحجاجية؛ حيث استخدم الإمام مجموعة متنوعة من الأدوات البلاغية لتحقيق الهدف المرجو من الخطبة، وهو إقناع المخاطبين بالزهد في الدنيا وعدم الانهماك في ملذاتها ومفاتنها، وقد استطاع الإمام من خلال اختياره الدقيق للألفاظ والمعاني والتراكيب أن يصل إلىٰ قلوب وعقول السامعين والتأثير عليهم.

خاتمة

انتهى البحث إلى عدد من النتائج من أهمها:

_ ترتبط البلاغة بالحجاج ارتباطا وثيقًا؛ إذ هو فن إقناع المخاطبين بفكرة معينة لايتم الوصول إليها إلا من خلال الأدوات والوسائل البلاغية.

_ تكمن بلاغة الحجاج في كلام الإمام عليّ في كيفية توظيف الأساليب اللغوية والبلاغية وفق ما يقتضيه السياق للوصول بالمتلقي إلىٰ حالة الإقناع.

_ كان للتصوير الحسّي في خطبة "ذمّ الدنيا" صبغةٌ حجاجيةٌ إقناعية تؤثر علىٰ المخاطب بشكل فعال.

استخدم الإمام عليّ مجموعة متنوعة من الأدوات التي تخلق تأثيرًا نفسيًّا لدىٰ المخاطب مثل التشبيه والاستعارة والكناية والتكرار والتضاد.

_ لأسلوب التخويف حضور طاغ في الخطبة للتحذير من عواقب الدنيا والتوجّه إلىٰ العمل للدار الآخرة الباقية.

_ اعتمد الإمام علي في خطبته علىٰ أسلوب التوكيد بصوره المتنوعة من أجل الوصول إلىٰ إقناع المخاطب وتمكين المعنىٰ في نفسه.

_ أدىٰ أسلوب الاستفهام دورًا إقناعيًّا واضحًا في توجيه الخطاب وتحقيق الهدف من الخطبة.

_ أدىٰ أسلوب القصر دورًا حاسمًا في توجيه المخاطبين وإقناعهم بعدم الاطمئنان إلىٰ الدنيا والوثوق فيها من خلال إبراز غدر الدنيا وتقلباتها.

_ اعتمد الإمام في توضيح معانيه وتقريبها إلىٰ الذهن بسهولة علىٰ طريقة التكرار للتركيز علىٰ عيوب الدنيا ومساوئها، ومن ثم إقناع المخاطبين بعدم الاطمئنان إليها أو الوثوق في مباهجها ومفاتنها.

_ كان للروابط الحجاجية لا سيما (الواو) دور فعال في تماسك الخطبة وانسجامها وتتابع الحجج وتسلسلها وتأكيدها.

_ أدىٰ التضاد دورًا مهما في العملية الحجاجية؛ إذ عمل علىٰ إيجاد صورة ذهنية واضحة تحيط بالمعنىٰ المراد من كل اتجاهاته.

_ كان للسجع دور فعال في جذب انتباه المخاطب مما يجعل الخطبة أكثر وضوحا وتأثيرا، فكان أداة من أدوات الإقناع، وعاملًا مهمًا في تماسك الخطبة وانسجامها.

قائمة المصادر والمراجع

١- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، الإمام عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجذري المعروف بابن الأثير ت:٦٣٠هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ.

٢- **أسرار البلاغة**، الإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، ط١، ١٩٩١م

٣- **الإعجاز البلاغي**، أ.د/ محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ٢٠١٢م

٤- **إعجاز القرآن للباقلاني**، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٥، دار المعارف، د.ت

٥- **الإيضاح في علوم البلاغة**، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، الناشر: دار إحياء العلوم_ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م

٦- **بلاغة الخطاب الحجاجي في النثر الفني (الخطابة في العصر الأموي أنموذجا)** أ.د/ عبد الرحمن رجا الله السلمي، مجلة الأثر، العدد ٢٩، ٢٠١٧م.

٧- **التصوير البياني**، أ.د/ محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، ط٧، ٢٠٠٧م.

٨- **التعريفات**، للعلامة علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر، د.ط، د.ت.

٩- **تلخيص الخطابة**، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

١٠- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني)**، دار المعارف، ط٤، بدون تاريخ.

١١- **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية"**، عبد الله

صولة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م

١٢- **الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة** _ حافظ إسماعيلي علوي، ومجموعة من الباحثين_ دار ورد الأردنية للنشر_ ط١_٢٠١١م.

١٣- **الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)**، بقلم حبيب أعراب، عالم الفكر، العدد الأول، ٢٠٠١م.

١٤- **الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته وتطبيقات في خطب ابن نباتة**، د/ باسم خيري خضير، دار صفاء للنشر، عمان، ط١، ٢٠١٩م

١٥- **الخطابة لأرسطو**، ترجمة: د/ عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد، د.ط، د.ت

١٦- **دلائل الإعجاز**، الإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، ط٣، ١٩٩٢م.

١٧- **سيرة أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) شخصيته وعصره**، علي محمد محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ، ط١، ٢٠٠٥م.

١٨- **شرح نهج البلاغة** لابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، طبعة الحلبي د.ت

١٩- **الصبغ البديعي في اللغة العربية**، د/ أحمد موسىٰ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩م.

٢٠- **صحيح مسلم**، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت:٢٦١ه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، رقم الحديث: ٢٧٤٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢١- **الطبقات الكبرى لابن سعد** (العشرة المبشرون بالجنة)، الزهراء للإعلام العربي، ط٤، ١٩٨٨م.

٢٢- **عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص**- دار إحياء الكتب العربية- مطبعة الحلبي

٢٣- **علم البديع**، د/ بسيوني فيود، مؤسسة المختار للنشر، ط٣، ٢٠١٣م

٢٤- **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان**، ابن قيم الجوزية، مكتبة المتنبي، بدون تاريخ.

٢٥- **في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات**، أ.د/ عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر، ط١، ٢٠١١م.

٢٦- **كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)** لأبي هلال العسكري، تحقيق: د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١،١١٩٩م

٢٧- **لسان العرب لابن منظور** مادة (حجج)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٩٩م

٢٨- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** لابن الأثير، ت: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

٢٩- **معجم مقاييس اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة، ١٩٩٧م.

٣٠- **المعيار والموازنة في فضائل الإمام علي**، لأبي جعفر الإسكافي، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط١، ١٩٨١م

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	١٨٩٧
تمهيد	١٨٩٩
• مفهوم الحجاج	١٨٩٩
• مفهوم الخطابة	١٩٠١
• التعريف بالإمام عليّ بن أبي طالب	١٩٠٢
المبحث الأول: العناصر الحجاجية في الخطبة	١٩١٠
المبحث الثاني: أدوات الحجاج ووسائله اللغويَّة.	١٩١٩
المبحث الثالث: حجيَّة الصورة البيانية	١٩٣٧
المبحث الرابع: حجية الفنون البديعيّة	١٩٤٣
الخاتمة	١٩٥٠
قائمة المصادر والمراجع.	١٩٥٢
فهرس الموضوعات	١٩٥٥